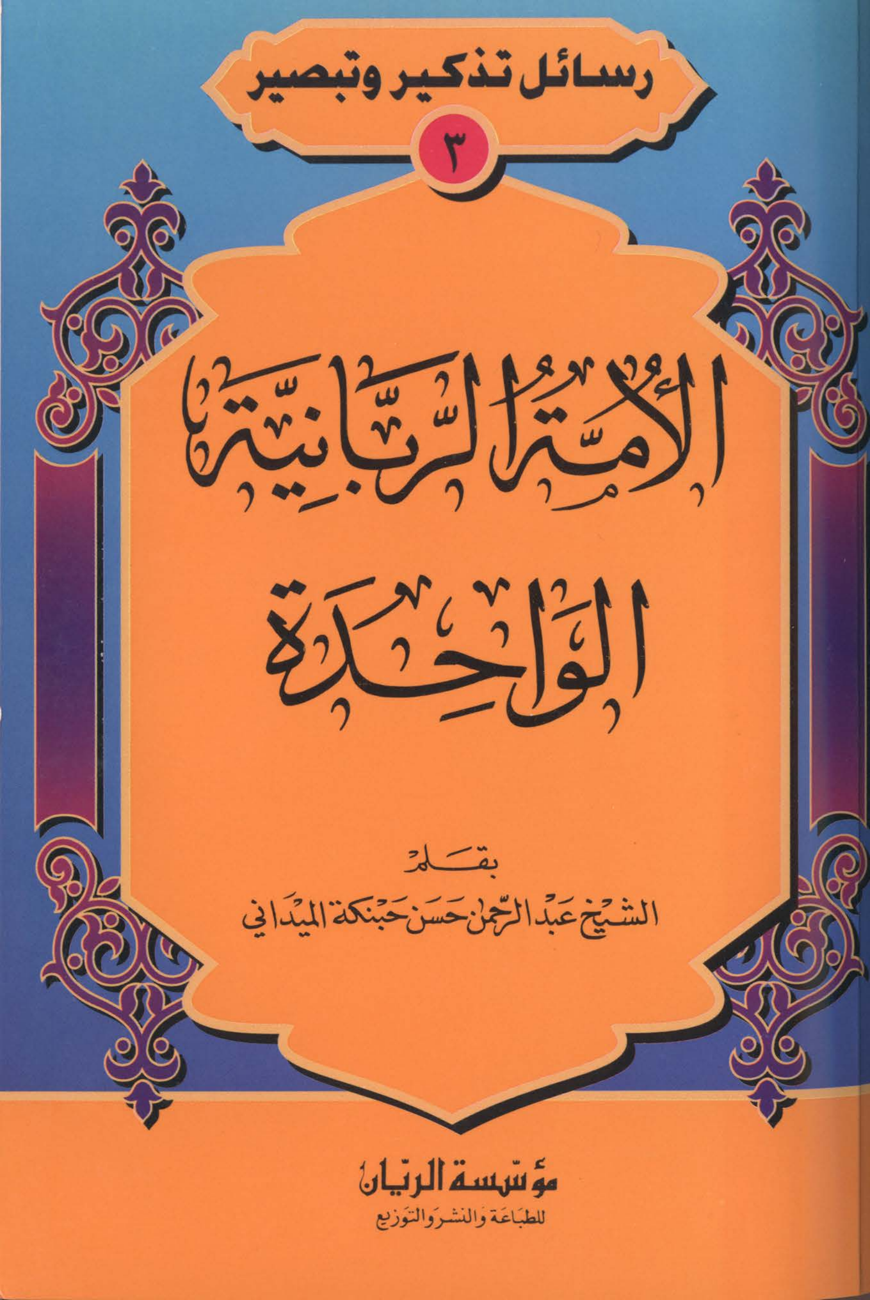

رسائل تذكير وتبصير
٣
الأمة الربانية
الواحدة
بقلم
الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني
مؤسسة الريان
للطباعة والنشر والتوزيع


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الأمة الربانية

الواحدة



الطبعة الثانية

١٤١٦هـ - ١٩٩٦م

مؤسسة الريان

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب ١٤/٥١٣٦، السجل التجاري في بيروت رقم ٥ / ٧٤٢١

رسائل تذكير وتبصير

(٣)

الأمة الربانية الواحدة

بقلم

الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

مؤسسة الريان
للطباعة والنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الواحد الأحد، الذي جعل الناس كلَّهم سلالة آدم، وأمر بأن يكونوا أمّة واحدة مؤمنة مسلمة، فمن كفر وعصى خرج من دائرة هذه الأمة، فاجتالته الشياطين.

والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين، الذي جاء إلى الناس المتفرقين شِيَعاً وأحزاباً، فدعاهم إلى العودة إلى دائرة الأمّة الربّانية الواحدة بالإيمان والإسلام، فمن استجابَ آواه الله في رحمته، وكان من حزب الله، ومن أعرض واستكبر وعصى ظل في فرقة وشقاق مع أحزاب الشياطين، ويقودهم على تفرقهم الشيطان الأكبر إبليس.

وبعد: فهذا بحث بعنوان **«الأمّة الربّانية الواحدة»** أعددته للمؤتمر العالمي الثاني لتوجيه الدعوة وإعداد الدعاة، الذي دعت إليه الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، والمقرر انعقاده في شهر ربيع الأول سنة

١٤٠٣ هجرية، فهو أحد البحوث التي قدّمت إليه للاستعراض والمناقشة.

والله أسأل أن ينوّر به طريق العاملين، لاستعادة وحدة هذه الأمّة، في واقع ترتفع فيه الحواجز المصطنعة بين شعوبها، وتُعالجُ به عوامل الفرقة بالعلاجات الإسلامية الشافية.

وإذا صحّت العزائم، وصدقت النيات، واتخذت الأسباب الكافية المناسبة، ذلّل الله العقبات، وحقّق الرغائب، وأعاد للمسلمين مجد الاستخلاف في الأرض، وما نحسبه اليوم متعذِّراً هو بتوفيق الله ومعونته هيِّن، ولكنّ المطلوب أن نسير في الطريق الصحيح، ونصبر ونصابر، ونكافح ونناضل، ونسير بخُطى وئيدة ثابتة، ولا نستعجل المطلوب قبل أوانه، فما لا نأكل نحن ثمرته، قد يأكلها أحفادنا أو من بعدهم، فتاريخ الأمم لا يُصنع في جيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

مكة المكرمة في غرَّة محرَّم ١٤٠٣ هجرية

عبد الرحمن حسن حَبَنكة الميداني

تعريف بالبحث

يشتمل هذا البحث على ستة فصول:

١ ـ عالج الفصل الأول منها المفهوم الإسلاميّ لوحدة الأمّة الربانية.

٢ ـ وعالج الفصل الثاني موضوع الروابط الإنسانية بشكل عام، وعناصر التلاقي وعناصر الافتراق في المجتمع البشري، مع تمييز روابط الأمّة الربّانية الواحدة.

٣ ـ وعالج الفصل الثالث شرح روابط الأمّة الربّانية الواحدة والوشائج المؤازرة لها.

٤ ـ وعالج الفصل الرابع حركيّة بناء الأمّة الربّانية في عصر الرسول ﷺ.

٥ ـ وعالج الفصل الخامس فوائد وحدة الأمّة، وقدَّم نظرات ومقترحات حول الخطوات النافعة في سبيل عودة المسلمين إلى وحدتهم الكبرى.

٦ ـ أمّا الفصل السادس الأخير فقد ألقى بعض

الضوء على مكايد أعداء الإسلام لتفتيت وحدة المسلمين، وهذا الفصل من الممكن تفصيل موضوعاته في كتاب كامل.

وإذْ أقدّم هذا البحث لأهل الفكر والغَيْرة على الإسلام والأمّة الإسلامية أرجو أن يزوِّدوني بنصحهم، وبدعوات صالحات، وأن يعملوا جهدهم على تعميق فكرة هذا الركن من أركان جماعة المسلمين، وأن يغذُّوا به أجيالهم منذ النشأة، كما يغذّونهم بأركان الإيمان وأركان الإسلام، فما لم تكن لدى المسلمين جميعاً القناعة الكافية والعقيدة الراسخة، بضرورة استعادة وحدتهم الكبرى، وأنّ مصالحهم العظمى مرتبطة بها، فإنَّ هذه الوحدة المنشودة ستظلّ أملاً غير مقترنٍ بعمل.

الفكر هو الخطوة الأولىٰ، فالاعتقاد الراسخ، فالعاطفة المحرِّكة والمثيرة والباعثة، فالإرادة الموجّهة الآمرة، فالعمل المسُوق بكلٍّ هذه القوى الداخلية، وعندئذٍ يستخدم العامل طاقات جسده وينفقها في مجالات حركته.

فلنبدأ بالفكر تأسيساً وتوضيحاً وتكاملاً، ولنرسّخ العقائد، قبل شحن العواطف وإثارتها بغير وعي، كذلك علّمنا القرآن في تنزيله المنجَّم.

الفصل الأول

المفهوم الإسلامي لوحدة الأمّة الربّانية

وفيه أربع مقولات:

المقولة الأولى: الأصل وحدة المجموعة البشرية.

المقولة الثانية: عوامل التفرّق.

المقولة الثالثة: دفع شبهة إرادة الله تفرّق الأمة إرادة جبرية.

المقولة الرابعة: كلمة «أمّة» في الاستعمالات القرآنية.


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

المقولة الأولى
الأصل وحدة المجموعة البشرية

تقضي المفاهيم الدينيّة التي دلّت عليها النصوص الإسلامية، بأنَّ الأصل هو وحدة المجموعة البشرية، بشرط التقائها على الإيمان بالله الخالق الواحد الأحد الذي خلقها وبسائر أركان الإيمان، وبشرط التزامها بما يُنزّل عليها من أحكام وتكاليف، مهما غيّر في ذلك وبدّل من حين لآخر، تبعاً للحكمة التي تقتضيها ظروف المجتمع البشريّ المتطوّر.

إنَّ المجتمع البشريّ يتكاثر وفق سنة الله في خلق الأحياء، وبتكاثره تتكاثر علاقاته، وتتكاثر أيضاً أنواع علاقاته بمرور الزمن، وتعدّد أنواع الاحتكاك، وفق مقتضيات رغبات الأفراد والجماعات.

ثم تتكامل تجربات المجتمع لهذه العلاقات

واحتمالاتها، حتّى يصل المجتمع البشري إلى مرحلة من التكاثر ووفرة التجربات وكفايتها، إلى وضع يؤهِّل الناس لإنزال نظامٍ تشريعي ختاميّ لهم.

وهنا تقضي الحكمة العليا في هذا التشريع الختامي بأن تستوعب أصولُه وكليّاتُه التشريعية وأمثالُه الصالحةُ لأن يقاسَ عليها كلَّ ما يُمْكنُ أنْ يَجِدَّ في العلاقات الإنسانية، حتّى يجدَ الناس في هذه الأصول والكليّات ما يشمل ما قد جدّ من أمور وعلاقات ومستحدَثات.

أو يجدوا فيما جاء به النّصّ من أمثالٍ أشباهاً وأمثلة ونظائر يقيسون عليها ما قد جدَّ، فيعرفون حكمه عن طريق التشبيه والتمثيل والتنظير والقياس.

وقد دلّتنا أربعة نصوص قرآنية على هذه الأمثال الصالحة لأن يقاس عليها شرعاً ما قد يجدُّ من أمور في العلاقات الإنسانية، وما قد يجدُّ من أشياء في المكتشفات والمخترعات والمبتكرات.

وهي بحسب ترتيب نزولها النصوص التاليات:

النص الأول: قول الله تعالى في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) وهي سورة مكية:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾.

النصّ الثاني: قول الله تعالى في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) ـ وهي سورة مكيّة ـ:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

النصّ الثالث: قول الله تعالى في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) ـ وهي مكيّة ـ:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾.

النصّ الرابع: قول الله تعالى في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول) ـ وهي مكية ـ:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

إنَّ التعميم الذي دلّ عليه قوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾ في هذه النصوص يشمل بحسب دلالة العموم المنصوص عليها بكلمة (كلّ) الأمثال من الحجج لإثبات

أصول الدين، والأمثال من سنة الله في خلقه ليتعظ الناس بها، والأمثال من الحلال والحرام ليقيس الناس عليها.

ولا بدّ أن نلاخظ هنا أنَّ الآيات تحدّثت عن القرآن كلّه، في المرحلة التي لم يكن قد نزل فيها إلاَّ بعضه، لتُعطي هذه الآيات دلالتها المرحلية، ودلالتها بالنسبة إلى ما سينزِّل الله من آيات وسور في مراحل لاحقات، توطئة وتمهيداً، وإعداداً لنفوس المخاطبين، حتى يتدبّروا كلّ ما سينزِّل الله على رسوله من هذا القرآن.

ونلاحظ من هذه النصوص الأربعة أنّ كلّ اثنين منها قد اشتركا في عنوان:

فالأول والثالث قد اشتركا في عنوان (صَرَّفنا).

والثاني والرابع قد اشتركا في عنوان (ضَرَبْنا).

التصريف: التنويع والتغير، واتخاذ مختلف الوجوه الممكنة للوصول إلى الغاية.

ضرب المثل: يرادُ به تقديم نموذج يصلح لأن يقاس عليه نظائره.

* * *

المقولة الثانية
عوامل التفرّق

إذا كان الأصل وحدة المجموعة البشرية، فلماذا تفرّق الناس؟. وما هي عوامل التفرّق؟

لقد عرفنا أنَّ الأصل وحدة المجموعة البشرية بشرطين:

الشرط الأول: الالتقاء على الإيمان بالله الواحد الأحد الذي خلق الناس أجمعين.

الشرط الثاني: الالتزام بما ينزّل الله للنّاس من تشريع، مهما غيّر في ذلك وبدّل من حين لآخر، تبعاً للحكمة التي تقتضيها ظروف المجتمع البشري المتطوّر.

ولو أنَّ الناس حافظوا على هٰذين الشرطين الأساسيين لوجدوا أنفسهم مشدودين باستمرار إلى دائرة الوحدة الإنسانية، ولظلَّت عوامل التفرق الأخرى القائمة على الأنانيات الشخصيَّة أو العرقية أو القومية أو اللغوية أو الإقليمية عوامل ثانوية وضعيفة، تقاومها دائماً وتكبح من

جماحها عناصر الوحدة القائمة على الإيمان بالله الواحد الأحد، والتزام شريعته لعباده، ووحدة النوع الإنساني في طينته ونشأته وسلالته وخصائصه وصفاته الجوهرية.

ولكنّ المفرّق العظيم لوحدة الجماعة الإنسانية هو المفرّق القائم على الاختلاف في قضية الإيمان بالله، والاختلاف في منهج الحياة المتبع.

لقد كان الناس أمّة واحدة على مقتضى الأصل، وذلك بحسب نشأتهم من أصل واحد، والتقائهم على دين واحد، تلقَّوْهُ عن أبيهم آدم عليه السلام، ثمَّ ورثوه من بعد ذلك عمَّن تلقَّوْهُ عنه من ذرِّيته.

وظلّ الأمر كذلك حيناً من الدهر، ثمّ تسلّل إلى أفرادهم وجماعاتهم الاختلاف في قضية الإيمان بالله تعالى، والاختلاف في منهج الحياة، إذْ نمت فيهم نوامي رغبات البغي والفجور واتباع الهوى.

فكفر بالله منهم من كفر، وأشرك به من أشرك، وفجر من فجر، وعصى من عصى، واشتدت شوكة البغي بينهم، وتبع ذلك عوامل تفريق كثيرة، فكان الاختلاف.

ثمّ أعطى الاختلاف ثمرته الطبيعية، فكان التفرّق قضيّة حتمية في سنن المجتمع البشري للاختلاف الذي حصل.

ثمّ انضمت العوامل الأنانية بأثقالها وأعتدتها، فأمعنت في التفريق وتكريسه، وإقامة السدود العريضة بين المتفرقين من الناس.

إنَّ من كفر أو فجر فجوراً كليّاً قد أخرج نفسه بما فعل من وحدة الجماعة الإنسانية التي هي الأصل.

فالفرقة أوَّلاً تكون بين جماعة المؤمنين الملتزمين شريعة الله لعباده، وجماعة الذين كفروا أو فجروا فجوراً كُلِّياً فأخرجوا أنفسهم عن وحدة هذه الجماعة. إنهما قد صارا فريقين متناقضَين متضادَّين: عقيدة ومنهج حياة، فتعذَّرت الوحدة بينهما، فمن أراد الوحدة فلْيَعُدْ إلى دائرة الأصل، فهي وحدها الجامعة.

ثم إنَّ الخارجين بكفرهم أو فجورهم الكلِّي عن وحدة الجماعة الإنسانية التي هي الأصل، لا بدَّ أن تختلف بهم الأهواء والشهوات والأنانيات، فيتخذ كلّ فريق لنفسه سبيلاً يظنه ضامناً لتحقيق رغباته.

وهذا هو الذي حصل في المجتمع البشري، فالذين خرجوا اتخذوا لأنفسهم سُبُلاً تتفرَّع بهم في متاهات وضلالات، فتفرَّقوا طرائق قِدَداً، وأحزاباً شتَّىٰ، كلّ حزب بما لديهم فَرِحون.

فمن شاء وحدة الجماعة الإنسانية، والخلاص من آلام التفرُّق وويلاته، فما عليه إلاَّ أن يرجع إلى

سبيل الله، إيماناً به، والتزاماً بشريعته لعباده، وفق آخر صيغة أنزلها إليهم. وعندئذٍ يجد نفسه فرداً من أفراد الأمّة الربّانية الواحدة، التي هي أصل المجتمع البشري.

هذه حقائق دلَّ عليها كتاب الله القرآن، وكلّ ما يخالفها من آراء علماء الاجتماع فهو باطل، لا يستند عندهم إلاَّ إلى تكهُّنات ورَجْم بالغَيْب، وبعضهم يفتري أفكاراً وافتراضات من محض تخيُّلاته بقصد مضادّة دين الله، وحمل الناس على الكفر به.

أمّا النصوص القرآنية فهي ما يلي:

أ ـ لقد أنزل الله عزّ وجل في المرحلة المكيّة قوله تعالى في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول): ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

أي: وما كان الناس إلاَّ أمَّةً واحدة على الإيمان بالله الواحد الأحد، والعمل بشريعته لعباده، وهو الإسلام وفق الصيغة التي علّمها الله آدم عليه السلام. فاختلفوا حين نبذ منهم من نبذ عوامل وحدتهم الكبرى. ولولا كلمة قضائية سبقت من ربّك، وهي التي تمّ بها قرار تأجيل الإدانة والجزاء على الكفر والخروج عن منهج الله إلى يوم الدين والجزاء لقضي بينهم في الحياة الدنيا فيما فيه يختلفون، فأدَان الله وجازىٰ الذين اختلفوا عن

دين الله ومنهاجه، وأنزل بهم ما يستحقون من عقاب.
ولكنّ الكلمة القضائية العامّة التي سبقت قد حدَّدت أنَّ الإدانة الكبرى والجزاء الأكبر أمران مؤجَّلان للحياة الأخرى، بعد هذه الحياة الدنيا.

ب ـ ثم أنزل الله في المرحلة المكيَّة أيضاً قوله تعالى في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) مُبَيِّناً فيه ما خاطب به الرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

فدلَّ هذا الخطاب للأنبياء على أنَّ الأمَّة الربّانية أُمَّةٌ واحدة، من لدُن آدم عليه السلام، حتى خاتمهم سيدنا محمد ﷺ، وهي أمّة الإسلام الذي هو الدين عند الله.

ووظيفة الأنبياء أن يتتابعوا مبشِّرين ومنذرين ومبلِّغين لدين الله الواحد، وأن يكون كلٌّ منهم في زمنه أو في مجموعته قائداً لقومه من هذه الأمّة الواحدة على منهج الله، فهم وإن تعدَّدوا مبعوثون من قبل مرسلٍ واحد، وبدين واحد، وهم إخوة.

ثمّ على أتباع دين الله أن يؤمنوا بهم جميعاً، وأن لا يفرّقوا بين أحد منهم، وأن يعملوا وفق الصيغة التشريعية الأخيرة التي يأتي بها التالي فالتالي حتى الشريعة الخاتمة.

وفي الشريعة الخاتمة نفسها يجب العمل وفق الصيغة الأخيرة منها، إذ اقتضت مراحل تنزيلها التكامل فيها، وبعضَ النَّسخ، للإقناع بحكمة النّسخ الذي جرت به سنة الله في الشرائع، من لاحقٍ لسابق.

وبعد هذا البيان من الله للأنبياء، يحكي الله واقع المجتمع البشري، فيقول عزَّ وجل:

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾.

أي: والناس في واقع الحال قد تقطَّعوا أمرهم بينهم، إذ تركوا الاتّباع الحقّ للأنبياء، وانفصلوا عن الأمّة الرّبّانية الواحدة، وهجروا دين الله، فافترقوا إلى فرقٍ شتّىٰ، وأحزاب متقطّعة، وكان لكلٍّ منهم أمرٌ منقطع لا صلة بينه وبين أمر الفريق الآخر، أو الحزب الآخر، فدفع بهم ذلك إلى اتّساع شُقَّة الخلاف والتفرُّق.

وأشار النصّ آخِرِه إلى قضيّة الابتلاء في الحياة الدنيا والجزاء في الحياة الأخرى، ببيان أنّ جميع الناس راجعون إلى الله، سواءٌ منهم من لم يخرج عن دائرة الأمة الرّبّانية الواحدة، أم من خرج واتخذ لنفسه سبيلاً آخر أو سُبُلاً، فقال عزّ وجلّ:

﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾.

أي: لمحاسبتهم ومجازاتهم على ما قدّموا أو أخَّرُوا من عمل، إنْ خيراً فخير، أو شرًّاً فشرّ.

جـ - ثمّ أنزل الله تعالى في المرحلة المكيّة أيضاً قوله في سورة (المؤمنون/ **٢٣** مصحف/ ٧٤ نزول) خطاباً للرسُلِ جميعاً، وفي هذا الخطاب دلالة على أنَّ مضمونه قد أنزل على جميع المرسلين، ضمن ما أنزله على كلٍّ منهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾.

(زُبراً: أي قِطَعاً، وكتباً ذات تعاليم مختلفة)

فأضاف هذا النصّ على ما جاء في سورة الأنبياء عدّة بيانات:

الأول: زيادة بيان في موضوع افتراق الناس، وخروجهم عن الأمّة الربّانية الواحدة.

فزاد النصّ هنا بيان أنّ الناس إذّ تقطَّعوا أمرهم بينهم قد تقطَّعُوه زُبُراً، أي: قطعاً كثيرةً مختلفة. وأنَّهم إذْ تقطَّعوا أمرهم إلى مبادىء شتَّىٰ، اقتضىٰ ذلك أن

يكونوا أحزاباً مختلفة متصارعة، كلُّ حزبٍ منهم معجب بما لديه من مبادىء ومنهاج حياة، وفَرِحٌ به.

إنَّ ما جاء في سورة (الأنبياء) قد اقتصر على قول الله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ﴾. أمّا سورة (المؤمنون) فقد قال الله تعالى فيها: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾.

وهذا من التكامل في النصوص القرآنية.

الثاني: زيادة بيان أن اختلاف الناس وافتراقهم قد جاء عقب بعثات الرسل عليهم الصلاة والسلام، فلم يَطُل بهم أمر اجتماعهم، على ما جمعهم عليه رسلهم. دلّ على هذا العطف بحرف (الفاء) في: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ﴾ الذي يدلّ على أنَّ هذا التقطّع قد حصل دون تراخٍ زمنيٍّ طويل بعد الرُّسل.

الثالث: زيادة بيان أنَّ الله قد خاطب الرسل بقوله لهم: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ مع قوله لهم: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾.

وجاء التصريح هنا بنداء الرسل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ أمّا في سورة (الأنبياء) فقد جاء الخطاب عقب ذكر قصص عدد من الرسل، دون مقدّمة النداء هذه.

الرابع: ما جاء في (الأنبياء) تضمّن الأمر بالعبادة:

﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ وما جاء في (المؤمنون) تضمّن الأمر بالتقوى: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾.

أي. فاعبدوني متّقين في عبادتكم سخطي وعقابي، وما يمكن أن تجنوه لأنفسكم من شرّ وضُرٍّ في الحياة الدنيا بسبب معصيتي وترك عبادتي.

وهكذا تكامل النصان تكاملاً بديعاً.

د ـ ثمّ أنزل الله في أوّل العهد المدني قوله عز وجل في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢١٣)﴾.

إذا تدبّرنا هذه الآية مجتمعة مع ما نزل قبلها من نصوص قرآنية اتضحت لنا دلالتها، وانكشفت لنا ما فيها من محذوفات، هي مقدَّرات ذهناً، وأخذنا منها إضافات نتمِّم بها عقد الموضوع.

أي: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ يجمعهم الإيمان بالله والتزام شريعته لعباده، التي تلقّوها من أبيهم آدم عليه السلام.

وظلّ أمرهم كذلك حتى اختلفوا عقيدةً وشريعةً، فكفر من كفر منهم، وأشرك من أشرك، وفجر من فجر، وتفرّقوا بسبب هذا الاختلاف إلى أمم.

فاقتضت حكمة الله أن يتداركهم ببَعْث النبيين مبشّرين ومنذرين: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾،

وبعد أن بعث الله النبيين رسلاً مبشّرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب، اجتمع من آمن من الناس بهم وبرسالاتهم في دائرة الأمّة الربّانية الواحدة.

ثم بعد حين دبّ إلى الذين أُوتوا الكتاب وآمنوا به الاختلاف في الكتاب الربّاني نفسه، مع وَفْرة البيانات التي جاءتهم، والتي كان من مقتضاها أن لا يختلفوا مع وجودها.

وكان السبب في هذا الاختلاف وجود البغي بينهم، إذ ظهر فيهم التحاسد ونجمت فيهم رغبات الفسق، والفجور، واتباع الهوى، والخروج على طاعة الله، فأخذوا يتلاعبون بالكتاب، مع بقاء ظاهر الانتماء إليه، وإلى النبيّ الرسول الذي بلّغهم إيّاه عن ربّه.

ولولا التمكين والإذن القَدَري، الذي اقتضاه قانون الابتلاء في ظروف هذه الحياة الدنيا، ما استطاعوا الاختلاف والتلاعب في الكتاب الذي أنزله الله عليهم.

وكان من هؤلاء المختلفين فئة هداها الله بسبب صدق إيمانها إلى معرفة الحقّ الذي اختلفوا فيه، إذ بحثت في كتاب الله، وتدبّرت واستنبطت، فاهتدت إلى الحقّ بهداية الله ومعونته، وكان منهم آخرون أهل بغي وخروج عن الحقّ.

وفي بيان ذلك قال الله تعالى في الآية:

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾.

ومشيئة الله لا تفارق حكمته، فمن صحّ إيمانه وصدق فيه هداه الله إلى صراط مستقيم.

* * *

المقولة الثالثة
دفع شبهة إرادة الله تفرّق الأمم إرادةً جبريّة

يتوهم بعض المتعجِّلين في فهم النصوص أنَّ تَفرُّق الناس إلى أمم متعدّدة قدرٌ جبري لا مندوحة عنه، وليس ظاهرة من ظواهر الاختيارات الإنسانية المختلفة، القائمة على منحة الاختيار الحرّ، الذي به وضع الناس موضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، وأنّه ثمرة مخالفتهم لأوامر الله القاضية بالإيمان به، وبالتزام شريعته، وبالاندماج في الأمّة الربّانية الواحدة.

وسبب سوء الفهم هذا ناتج عن الخطأ في فهم مسألة الجبر والاختيار. فالجبر يقتضي أن يجعل الله الناس كلّهم أمة واحدة بقضاء تكويني قدري، لا اختيار للناس فيه، وهذا أمر لم يشأه الله ولو شاء لفعله، ولو فعله للزم أن يكون الناس كلّهم حينئذٍ مؤمنين جميعاً، لأنّ الله لو جعلهم مجبورين لجعلهم مجبورين على

الإيمان، إذ من المستحيل في حكمته وعدله أن يجعلهم مجبورين على الكفر، ولكنّ الجبر هذا يتنافى مع حكمة الابتلاء الذي يسْتَلزم منحة الاختيار الحرّ.

وكذلك لم يجبر الله الناس على التفرّق والاختلاف، وإنّما اقتضت حكمته أن يجعلهم مخيَّرين ليبلوَهم أيُّهم أحسن عملاً.

وإذ جعلهم الله في فطرتهم مخيَّرين، أمرهم بأن يؤمنوا به، ويلتزموا شريعته، ويكونوا أمّة ربّانية واحدة.

وقد لزم من كونهم مخيَّرين أن يؤمن بعضهم ويكفر بعضهم، وأن يكون ذلك سبباً في تفرّقهم. إنّ الاختيار الحرّ يستلزم أن يختار الناس اختيارات مختلفات، وبذلك تتعدّد مسالكهم وطرائقهم في الحياة.

أمّا من اختار منهم اتِّباع منهج الله فهو الذي سلك السبيل الواحد الذي اصطفاه الله للناس أجمعين، فكان من الأمة الواحدة التي قادها على التتابع أنبياء الله ورسله، وقادها في الرسالة الخاتمة سيدنا محمّد ﷺ.

إذن فعلينا أن نتدبّر كتاب الله تدبُّراً صحيحاً، ونفهم النصوص الدينيّة فهماً سليماً، وفيما يلي تدبُّر لجملة النصوص القرآنية التي تناولت هذا الموضوع:

أ ـ لقد أنزل الله في المرحلة المكية قوله تعالى في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩)﴾.

أي: ولو شاء ربّك أن يجبر الناس ويجعلهم أمّة واحدة لسلبهم اختيارهم الحرّ، ولجعلهم أمّة واحدة مؤمنة مطيعة كالملائكة.

ولكنّ هذا أمر لم يشأه الله، وذلك لأنّه قد شاء منذ خلقهم بخصائصهم الإنسانية أن يبلوَهم، عن طريق اختيارهم الحرّ، واختيارهم الحرّ يستلزم أن يختلفوا ويتباينوا فيما يختارون من طرائق في حياتهم، وأن يكون فيهم مؤمن ملتزم دائرة الأمّة الربّانية الواحدة، وأن يكون فيهم كافر خارج عن دائرة هذه الأمة، والخارجون لا بدّ أن يتفرّقوا فيما بينهم، إذْ تتوزّعهم الأهواء المختلفة.

وما دامت لوازم الاختيار لا بدّ أن تثمر فيهم الاختلاف، فالناس لا يزالون مختلفين، إلاّ من رحم ربّك، وهم الذين آمنوا واستقاموا على منهج الله، فشملتهم بسبب إيمانهم وطاعتهم واستقامتهم رحمة الله عزّ وجل:

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾.

إذن فالاختلاف ظاهرة من ظواهر الاختيار الحرّ، وإن كان المطلوب في التكليف عدم الاختلاف عن منهج الله، وعدم الاختلاف عن الأمّة الربّانية الواحدة.

إنّ للقضاء والقدر بمَنْحِه الاختيارَ الحرّ للإنسان، حكمةً تقتضيها غاية ابتلائه في ظروف الحياة الدنيا، إذْ لا يكون ابتلاء بدون تخيير، ولا معنى للحساب والجزاء مع الجبر.

لقد خلق الله الناس ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، فمنحهم شروط الابتلاء السويّ، فاختاروا لأنفسهم، فكان منهم مؤمن وكافر، ومطيع وعاصٍ، وكانوا بذلك مختلفين، وكان الواجب عليهم في بنود التكليف أن لا يختلفوا، بل يكونوا أمّة ربّانيَّة واحدةً على منهج الله القويم.

وثمرة الابتلاء الجزاء بعد السؤال والحساب العادل، ويكون الجزاء بالثواب في الجنة لمن آمن واستقام، وبالعقاب في جهنم لمن عصىٰ وكفر.

فقال الله تعالى في بيان ذلك مع طيّ محذوفات كثيرة في النصّ الذي نتدبره:

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

ب ـ ثم أنزل الله في المرحلة المكيّة أيضاً قوله تعالى في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾.

أي: ولو شاء الله أن يجعل فريق الجنة وفريق السعير أمّة واحدة لفعل سبحانه وتعالى، وتكون حينئذٍ أمةً مطيعةً جَبْراً لا اختياراً، ولكنّ ذلك يستلزم التغيير في أصل غاية خلق الناس التي هي الابتلاء، ويستلزم سلبهم اختيارهم الحرّ، وهو أمرٌ يتنافى مع مقتضيات حكمة الله من خلق الإنسان بصفاته التي منحه إياها، والغاية التي أعدّه لها.

ولمّا كانت ثمرة الابتلاء الجزاء، كان من مقتضيات حكمة الله أن يدخل في رحمته وهي جنته أهل الإيمان والطاعة، وذلك بمشيئته الحكيمة دون جبر ولا إلزام ولا ضرورة، بل هو من فضل الله.

وأمّا الظالمون فينطبق عليهم قانون العدل الربّاني، ويقع عليهم العقاب بحسب أعمالهم، ولا يكون لهم يومئذٍ وليٌّ يتولاّهم ويضمّهم إليه ليحميهم من عذاب الله، ولا يكون لهم نصير ينصرهم من عذاب الله، لقد قطعوا ولاية الله لهم باختيارهم الحرّ في الدنيا، ولا ولاية ولا حكم يوم الجزاء إلاّ لله.

جـ ـ ثم أنزل الله في المرحلة المكية أيضاً قوله تعالى في سورة (الزخرف/٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: ولولا أن يفتن الناس جميعاً بمظاهر الحياة الدنيا وزينتها، فيكونوا أمّة واحدة كافرة فاجرة، لجعلنا لمن يكفر بالرحمٰن هذه المظاهر من مظاهر الحياة الدنيا على سبيل التخصيص، ولحرمنا المؤمنين منها.

ولكن لا يقوى المؤمنون حينئذٍ على تحمُّل وطأة هذا الابتلاء، إذ يكون فتنة لهم عن دينهم، فيكفرون جميعاً، إيثاراً لهذه المظاهر من الحياة الدنيا على الآخرة.

وفي هذا إشعار بهوان الدنيا عند الله، وبحقارة شأنها في جنب الآخرة.

ولقد رحم الله عباده، فلم يخص أهل الكفر بما في الحياة الدنيا من مظاهر عظمة ورفاهية، بل جعل سبحانه وتعالى توسعة الرزق وتضييقه من الأمور التي

تصيب المؤمنين والكافرين جميعاً، وجعل التفاوت والتفاضل في القسمة من ذلك يتناول الأفراد، على أسس من حكمة الله واختياره، وهذه الأسس ترجع إلى أصل حكمة الامتحان، ولا علاقة لها بالإيمان والطاعة، والكفر والعصيان.

لذلك نجد أغنياء مرفَّهين مؤمنين وكافرين، ونجد فقراء بؤساء مؤمنين وكافرين أيضاً.

د ـ ثم أنزل الله عزّ وجلّ في المرحلة المكية أيضاً قوله تعالى في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

أي: ولو شاء الله أن يجعلكم أمَّة واحدة لجعلكم، ولكنتم حينئذٍ أمّة ربّانية مطيعة.

ولكن ذلك يستلزم سلبكم اختياركم الحرَّ، وجعلكم مجبورين، ويستلزم إلغاء قرار الغاية من خلقكم، وهي ابتلاؤكم عن طريق اختياركم الحرّ، ومجازاتكم على أعمالكم.

إذن فالله تعالى لم يشأن أن يجبركم، بل شاء أن يجعلكم مختارين، ليبلوكم أيكم أحسن عملاً.

ثمّ هو سبحانه يتولى محاسبتكم على أعمالكم، فيقضي بمشيئته الحكيمة على من قد ضلّ منكم بالضلال، ويقضي بمشيئته الحكيمة على من اهتدى منكم بالهداية، وهذا ما دلّ عليه قوله تعالى:

﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾.

ولا تمرُّ أحكامه عزّ وجلّ يوم القيامة قراراً قاهراً دون محكمة عادلة، بل يحاكمكم، ويسألكم عمّا كنتم تعملون، ويدينكم بالبيِّنات الكافية للإدانة، أشار إلى ذلك قوله تعالى:

﴿وَلَتُسۡـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

هـ ـ ثم أنزل الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمد ﷺ في أواخر المرحلة المدنية قوله تعالى في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

مهيمناً: جاء في تفسير المهيمن أنّه الأمين المؤتمن، والشاهد، والحاكم.

شِرْعة: الشِّرعة والشريعة في كلام العرب هي مشرعة الماء، وهي مورد الشاربة التي يشرعها الناس فيشربون منها ويستقون، وربّما شرَّعوها دوابّهم حتى تشرَعها وتشرب منها، والعرب لا تسميها شريعة حتى يكون الماء فيضاً لا انقطاع له، ويكون ظاهراً معيناً لا يحتاج أن ينضح بالدلاء.

(عن لسان العرب مع بعض تصرف في اللفظ)

ومنهاجاً: المنهاج والمنهج الطريق الواضح. تقول العرب: أَنْهَجَ الطريق، إذا وضح واستبان، وصار نهجاً واضحاً بيّناً.

فالله عزّ وجلّ يخاطب رسوله محمّداً ﷺ في هذه الآية، فيبيّنُ له فيها عدة أمور:

أ ـ منها حقائق منجّزةٌ بالقضاء التكويني.

ب ـ ومنها تكاليف اقتضتها حكمة الله التشريعيّة.

وفيما يلي بيان لهذه الأمور:

الأمر الأول: أنّ الله أنزل إلى رسوله القرآن بالحقّ الذي لا تشوبه شائبة من الباطل:

النص: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾.

الأمر الثاني: أنّ هذا القرآن مصدِّق للكتب الرّبّانية التي أنزلها الله بين يديه، أي: قبله. وهكذا الحقّ يصدّق بعضه بعضاً ويؤيّد بعضه بعضاً.

النص: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾.

الأمر الثالث: أنّ هذا القرآن مهيمنٌ على الكتب الرّبانية السابقة، فهو يشهد بصحة نزول كتب من عند الله على رسله السابقين، وهو الأمين الذي حفظ ما نزل فيها بصيغته التي لم يدخلها التحريف ولا التبديل ولا النسيان، وهو الحاكم عليها الذي يرجع إليه فيما اشتبه من أحكامها على الناس، ويرجع إليه في معرفة أحكام الله، وفق آخر صيغة مكمَّلة متمَّمة أكمل الله بها للناس دينهم، وأتمَّ بها عليهم نعمته.

النص: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾.

الأمر الرابع: تكليف الله رسوله أن يحكم بين الناس جميعاً ـ من اتبعه منهم، أو رضي بحكمه ممن لم يتّبعه ـ بما أنزل الله، وما أنزل الله يشمل ما انفرد به القرآن تكميلاً أو تعديلاً، وما اشتركت ببيانه الكتب الرّبّانية ممّا لم ينسخ ولم يعدّل فيه شيء، وهذا

التكليف للرسول ﷺ يشمل كلّ المسلمين أيضاً.

النص: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ﴾.

الأمر الخامس: تحذير الله رسوله من أن يتّبع أهواء الناس في الحكم بينهم، منصرفاً عمّا جاءه من الحقّ من ربّه. ويشمل هذا التحذير كلّ المسلمين أيضاً.

النص: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ﴾.

الأمر السادس: بيان أنّ الناس ينتهجون مناهج في حياتهم انطلاقاً من المبادىء والأسس الاعتقادية التي يعتقدونها.

هذا هو نظام السلوك الإنساني الذي فطر الله الناس عليه، وجعله سنة من سنن الاجتماع البشري.

النص: ﴿لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ﴾.

فالشرِّعةُ: تشير إلى المبادىء والأسس الاعتقادية التي يشرعُها الناس، فيشربون منها ويستقون مفهوماتهم للحياة وعقائدهم. وهي ما يسمّىٰ في اصطلاح القانونيين بالمبادىء الأساسية، أو المواد الدستورية، أو الدستور، أو الأسس التي يعتمد عليها الدستور.

والمنهاج: يشير إلى الأحكام التفصيلية لأعمال الحياة وأنواع السلوك فيها، وهذه الأحكام تستند إلى المبادىء والأسس الاعتقادية التي اشترعوها وانطلَقُوا منها.

والناس على أقسام:

١ - فمن يؤمن بالله ورسله واليوم الآخر، ويكون صادقاً مخلصاً حريصاً على سعادته ونجاته، يردُ شِرعَة الله لعباده، ويصدر عنها سالكاً منهاج الله لهم.

وانسجاماً مع هذه الفطرة التكوينية، اصطفى الله للناس في الكتب التي أنزلها على رُسله شِرْعة يشربون منها المبادىء والأسس التي يجب عليهم أن يؤمنوا بها، ليضمنوا لأنفسهم السعادة العاجلة والآجلة. واصطفى لهم منهاجاً بيّناً واضح المعالم، موصولاً بالشِّرعة. وأوصاهم بأن يسلكوه في حياتهم، ليضمنوا لأنفسهم السعادة. وهذا المنهاج قد دخل فيه بحسب التكامل البشري والتطوّر الإنساني تكامل وبعض تعديلات ليلائم الطور الذي وصل إليه الناس، حتى إذا اكتمل التطوّر البشري أنزل الله المنهاج المكتمل على خاتم رسله.

٢ - والذين يشركون بالله، قد اتخذوا لأنفسهم شِرْعة غير شِرْعة الله، ولا بدّ أن يكون لهم منهاج في

الحياة منسجم مع شركهم، وهو مخالف لمنهاج الله للناس.

٣ ـ والذين يجحدون الله جحوداً كلّيّاً، ولا يؤمنون بالغيب، ولا بإدانة ولا جزاء، قد اتخذوا لأنفسهم شرعة غير شرعة الله لعباده، ولا بدّ أن يكون لهم منهاج في الحياة منسجم مع كفرهم بالله واليوم الآخر، وهو مخالف حتماً لمنهاج الله للناس.

وهكذا يتضح معنى قول الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ إذ الخطابُ موجّه للناس جميعاً مؤمنين وكفّاراً.

وقد تشكل على بعض التالين للآية كلمة: (جعلنا) حينما نفهم الفهم الذي سبق بيانه.

وأقول: إنّ كلمة: (جعلنا) هنا يصح أن نفهمها بمعنيين:

الأول: بمعنى الجعل التكويني القَدَري، وهو يشمل ما فطر الله الناس عليه، وجعله سنة من سنن الاجتماع البشري.

الثاني: بمعنى الجعل التكليفي، وهو يشمل ما أنزل الله للناس من شرعة ومنهاج في كتبه ووحيه لرسله.

وارتباط قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا[1] مِنكُمْ شِرْعَةً

---

(١) استعمل القرآن فعل (جعل) في عدّة معانٍ، أبرزها المعاني التالية:

المعنى الأول: الخلق والتكوين، وهو الذي عليه معظم الآيات التي وردت فيها مادة (جعل). ومنه قول الله تعالى في سورة (الفتح ٤٨):

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ (٢٦).

وقوله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ (٤٦).

وقوله تعالى في سورة (الفرقان ٢٥):

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ (٣١).

والجعل القدري التكوين الذي يتناول التنظيم العام لسنن الوجود، لا يتنافى مع منحة حريّة الاختيار للمخيّرين، لأن الجعل القدري التكويني يشمل طريقي الخير والشرّ، وكلٌّ منهما فيه زينة قدريّة للابتلاء، ولولا هذه الزينة ما فعل المخيّر الشر باختياره. وعلى هذا المعنى يحمل مثل قول الله تعالى في سورة (الأنعام: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

المعنى الثاني: الحكم الديني الذي يمتحن الناس به، وقد وردت به بضع آيات استعملت فيها مادة (جعل).

منها قول الله تعالى في سورة (الإسراء ١٧):

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ﴾ (٣٣).

وقوله تعالى في سورة (البقرة):

وَمِنْهَاجًا ﴾ بما قبله يكون على الوجه التالي:

فاحكم بينهم يا محمد بما أنزل الله، ولا تتَّبع

= ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ (١٤٣).

وقوله تعالى في سورة (المائدة ٥):

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ (١٠٣).

فالنفي هنا نفي أن يكون لله حكم دينين باتخاذ البحيرة أو السائبة أو الوصيلة أو الحام.

المعنى الثالث: الحكم الإنساني الصادر عن تصوّر صواب أو خطأ، حقّ أو باطل، وقد وردت به عدة آيات استعملت فيها كلمة (جعل):

ومنه قول الله تعالى في سورة (العنكبوت ٢٩):

﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ (١٠).

وقوله تعالى في سورة (ق ٥٠):

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ۝٢٦﴾ (٢٦).

وقوله تعالى في سورة (التوبة ٩):

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ (١٩).

المعنى الرابع: الفعل ذو الأثر من أيّ مخلوق، سواء أكان صادراً عن إرادة، أو عن غير إرادة.

فمن الأول قول الله تعالى في سورة (القصص ٢٨):

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ (٤).

ومن الثاني قول الله تعالى في سورة (الذاريات ٥١):

﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ (٤٢).

أهواءهم منصرفاً عمّا جاءك من الحقّ، لك شرعتك ومنهاجك اللذين أوحينا بهما إليك، ولكلٍّ منهم أي: من الناس غير المؤمنين شرعته ومنهاجه. فسنّة الله في المجتمع البشري أنّ مناهج الناس في الحياة تتبع مشاربهم وشرائعهم، فالمؤمنون شرعتهم ابتغاء مرضاة الله ومنهاجهم أحكام دينه لعباده، والكافرون شرائعهم أهواؤهم وضلالات الشياطين، ومناهجهم ما يرضي شهواتهم ويرسم لهم شياطينهم.

الأمر السابع: بيان أنّ الناس لا بدّ أن يفترقوا إلى أمم، إذ لا بدّ أن تختلف شرائعهم ومناهجهم، بعد أن منحهم الله إراداتهم الحرّة ليبلوهم.

ولو شاء الله لجعل الناس أمّة واحدة، وذلك بأن يسلبهم إراداتهم الحرّة، وعندئذٍ يكونون أمّة مؤمنة ربّانية واحدة خاضعة في حركاتها وسكناتها لسلطان القدر الجبري.

ولكنّ هذا يفوّت حكمة الابتلاء، الذي هو في الأساس الغاية من خلق الناس مزوّدين بصفاتهم التي هم عليها.

النص: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾.

الأمر الثامن: بيان أنّ الله لم يجعل الناس أمّة

واحدة بالقهر والجبر، لأنّ حكمته قد قضت بأن يمتحنهم فيما آتاهم من إرادات حرّة، وإدراك للأمور وعقل، وشهوات، وغرائز وأهواء، وقدرة على الطاعة والمعصية، وفعل الخير وفعل الشر، وسخّر لهم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه.

النص: ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

الأمر التاسع: بيان المطلوب في الامتحان، وهو فعل الخيرات والاستباق إليها، ليظهر من هو أحسن عملاً، فيجازيهم الله يوم الدين، بحسب سبقهم أو تقصيراتهم جزاء الفضل. وليظهرالمسيئون والكافرون الجاحدون، فيعاقبهم الله يوم الدين على سيئاتهم وكفرهم وجحودهم عقاب العدل.

النص: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

فالمرجع إلى الله هو للحساب والجزاء، والإخبار بما كان الناس فيه يختلفون إلى شرائع ومناهج، يكون بكشف الحقيقة، التي لا يغشيّها يومئذٍ هوى، ولا وساوس شياطين، ولا ضلالات مضلّين، ولا زخرف أقوال المُغْوين المفسدين.

ويومئذٍ يظهر للجميع أنّ الحقّ الذي لا ريب فيه هو شرعة الله ومنهاجه، اللّذين أوحى بهما إلى رسله، وأمّا شرائع الناس ومناهجهم المخالفة والمختلفة فيما بينها، فهي بواطل وزيوف.

ويومئذٍ تحقّ كلمة الرحمة والتكريم لمن آمن بالله، وبما أنزل الله على رسله، واستقى من شرعته الطاهرة النقية لعباده، وسلك المنهاج الواضح البيّن الهادي إلى السعادة العظمى، والذي اصطفاه الله لهم.

ويومئذٍ تحقّ كلمة العذاب والإهانة لمن كفر بالله، واتخذ لنفسه شِرعةً شيطانية منتنة، وسلك في حياته منهاجاً واضح البطلان والفساد، وهادياً إلى الشرّ والضرّ والشقاء وعذاب السعير.

ما أعجب هذه الآية العظيمة ذات العطاء الثّرّ من سورة المائدة!!

إنها تصلح لأن تشرح بسفر خاص، وكلّ جملة منها عنوان لباب من أبوابه.

* * *

المقولة الرابعة
كلمة «أمّة» في الاستعمالات القرآنية

ولدى استقراء وسَبْر استعمالات كلمة (أمّة) في القرآن العظيم، ظهر لي أنّ هذه الكلمة تطلق فيه على كلّ مجموعة حيّة، تجمعها صفات أو خصائص أو روابط متميّزة.

فكل أمّة من الناس أرسل إليها رسول ليبلغها رسالة ربّه، فهي أمّة بلاغ ذلك الرسول، ومن أجابه منهم واتبعه فهم أمّة الإجابة، ومن قام بواجب الدعوة إلى دين الله من أتباع الرسول فهم أمّةُ الدعوة، ومن قام بواجب الجهاد في سبيل الله منهم فهم أمّة الجهاد. والفريق من الأمّة الواحدة إذا اجتمعوا على رأي واحد متميّز افترقوا به عن سائر إخوانهم تطلق عليهم كلمة أمّة، حتى الفرد الواحد المتميز عن قومه.

أمثلة قرآنية:

أ ـ قال الله تعالى في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ . . ﴾ (٣٦).

ب ـ وقال الله تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

جـ ـ وقال الله تعالى في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

د ـ وقال تعالى في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

هـ ـ وفي شأن بني إسرائيل قال الله تعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ﴾ (١٦٠).

وقال أيضاً:

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ﴾ (١٦٨).

ولمّا كانت الأمّة الربانية في التاريخ البشري

تجمعها ديانة ربّانيّة واحدة، تكاملت وتطوّرت وفق تكامل المجتمع البشريّ وتطوّره، وكانت منزّلة من ربّ واحد لا شريك له، وقد أرسل لتبليغها للناس رسلا متعدّدين، وبعث للهداية بها أنبياء كثيرين، خاطب الله النبيين والمرسلين بأنّ أمّة الإجابة لدعوة الرسل عبر التاريخ الإنساني أمّة واحدةٌ، ربّهم واحد، ودينهم واحد.

أمّا التكامل والتطور اللذان اقتضتهما طبيعة التكامل والتطور البشري، فهما لا يؤثّران على وحدة الدين.

ففي رسالة الرسول الواحد، كرسالة سيدنا محمّد ﷺ، نلاحظ أنّ الله تبارك وتعالى قد أنزلها وفق سنة التكامل، لا دفعة واحدة، وأنه نسخ فيها بعض أحكام سابقة بأحكام لاحقة، لإثبات أنّ التكميل والتعديل والتبديل أمور لا تؤثر على وحدة الرسالة، ولا على وحدة أتباع الرسول، وبقي شاهداً على هذه الحقيقة ما نسخ حكمه وبقيت تلاوته في القرآن الكريم.

فسنة التكامل في الرسالات الرّبّانية، ومواءمة أحكامها لتطورات الأمم، لا تؤثر على وحدة هذه الرسالات، ولا تؤثر على وحدة الأمة الربّانية التي تتابعت عليها رسل الله وأنبياؤه.

يضاف إلى ذلك ما في التكميل والتعديل والتبديل من حكم وغايات أخرى تعليمية وتربوية، ومنها أن لا يجد البشر حرجاً في تعديل قراراتهم وأوامرهم ونسخها إذا بدا لهم ما هو خير.

وفي النسخ والتبديل ابتلاء لإرادات الناس وطاعتهم فيما يأمرهم الله به أو ينهاهم عنه، مهما غير الله فيه وبدّل.

هذا الفهم لمعنى الأمّة الرّبانية الواحدة، هو الفهم الذي كان ماثلاً في تصوّر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

فحين كانا يرفعان القواعد من البيت الحرام، كان من دعائهما لربّهما أن يجعل من ذرّيتهما أمّةً مسلمةً له، فلم يقولا أُمماً.

وكان من دعائهما معاً أن يبعث الله في العرب سكان البلد الحرام رسولاً منهم، قال الله تعالى في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ

أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾.

* * *

الفصل الثاني

الرّوابط الإنسانيّة

وفيه مقولتان:

المقولة الأولى: فلسفة عناصر التلاقي وعناصر الافتراق في المجتمع البشري.

المقولة الثانية: تحليل الروابط الإنسانية وتقويمها.



المقولة الأولى
فلسفة عناصر التلاقي وعناصر الافتراق في المجتمع البشري

في طبيعة الإنسان أمور تشدّه إلى الجماعة وتصله بها، وأمور تبعده عن الجماعة وتفصله عنها.

وبالرجوع إلى بدء نشأة الإنسان وتكوّن إدراكاته نلاحظ أنّ أول شعور يحسّ به هو شعوره بذاته، فشعوره بلذّات جسده، وآلام جسده، ويتواتر عليه هذا الشعور، ومعه ينشأ في نفسه حبّ ما يعطيه مشاعر اللّذة، وكراهية ما ينزل به مشاعر الألم.

ثم يتدخل إدراكه الواعي فتّتسع دائرة حبّه وكراهيته، فيحبّ من يأتيه بما يجلب له اللّذة، ويكره من يأتيه بما يجلب له الألم.

ثم تتّسع مداركه، فيتنقّل مع الأسباب فيكره من يحجب عنه ما يلذّ له، ويحبّ من يدفع عنه الألم.

وهو في كلّ ذلك يدور حول نفسه ومشاعرها السعيدة والمؤلمة، ورغباتها وحاجاتها ومطالبها الآنية.

ثمّ تتسع مدارك الإنسان، فيبدأ بتصوّر ما يكون له به لذّة أو مصلحة آجلة، وما يكون له به ألم أو مفسدة آجلة، فيحبُّ القسم الأول ويسعى له سعيه، ويكره القسم الثاني، ويتخذ حِذْره منه، ويسعىٰ لحماية نفسه من ضرّه وأذاه.

وممّا ينشأ معه منذ الطفولة حبُّه لأمّه، أو من يربيه ويلبّي حاجاته، لأنّه يجد عندها لذة رضاعه وحضانته، ولذّة الأنس بحمله وتدليله، وإزالة ما يؤذيه، وجلب الراحة له، ولذّة شعوره بأنه محبوب مرغوب فيه له كيانه وقيمته عند أهله.

وهذه هي المبادىء الشعورية الأولى التي تشدّه للارتباط الجماعي، والارتباط الجماعيّ حتى الآن يقتصر على جماعة الأسرة التي يجد عندها محابّه.

ثم تنمو مدارك الإنسان، وتتولّد لديه حاجات، وتظهر له من كوامن نفسه حاجات تربطه بالجماعة، فحاجة الإنسان إلى الأُنس، والأمن، والسكن،

والتقدير، والحبّ، والمعونة لتحقيق مطالبه في حياته، والانتماء إلى جماعة تحميه وتنصره وتكرّمه، تجعله اجتماعيّاً.

ومهما كانت للإنسان عند الجماعة مطالب أوفر، وكان على التخفيف من أنانيته التي تبتغي الأخذ دون عطاء أو مكافأة أقدر، كان أكثر اجتماعيّة، وأكثر حُبّاً للجماعة، وأكثر عطاءً لها.

وحين تصحّ لدى الإنسان مسيرة التفكير، وتنضج لديه المعرفة، ويهتدي بهدي الأنبياء والمرسلين، يدرك أنّ الخلق جميعاً لا يقدرون على تحقيق جميع مطالبه الحالية والمستقبلية، ذات الوسائل المشهودة أو الغيبية. ويدرك أنّ مهيمناً غيبياً قديراً عليماً حكيماً هو الذي بيده مقاليد كلّ شيء، وهو الخالق، وهو الذي بيده النفع والضرّ كلّه، وهو وحده القدير على كلّ شيء.

عندئذٍ يجد نفسه متجهة للاستعانة به، والانتماء إليه، والالتجاء إلى حماه، وتعظيمه، وإجلاله وحبّه.

وعن طريقه عزّ وجلّ، ومن أجله ينتمي إلى الجماعة المنتمية إليه، والمتصلة به، والمتبعة لوصاياه، والخاضعة بالإرادة الحرّة لسلطانه التكليفي، مع خضوعها الجبري لسلطانه التكويني.

ويجد أمامه التعاليم التي أنزلها سبحانه وتعالى، وبيّن فيها حقوق الجماعة على الفرد، وحقوق الفرد على الجماعة، ويجد أمامه أيضاً ضوابط العدل التي نظّم الله بها حركة أفراد الجماعة على أسس الحق، وحوافز أعمال البرّ والإحسان التي يتولى الله عزّ وجلّ المكافأة عليها.

وبانتمائه إلى هذه الأمّة يجد نفسه ضمن دائرة الأمّة الربّانية الواحدة، ويجد نفسه قد حقق جميع مطالبه، وفوقها ممّا لا يخطر على باله، في الواقع القريب، وفيما لا بدّ أن يقع في المستقبل، ويجد أنّه لم يحرم نفسه ولا (أناه) شيئاً. ولكنّه غدا على يقين بأنّ من سنن الاجتماع البشري أنّه لن يحصِّل من مجتمعه على ما يريد، ما لم يبذل له حقوقه عليه، ولن يأخذ منه ما يرجو من حقّ، ما لم يُعْطه ما عليه من واجب.

أمّا من لم تصحّ لديه مسيرة التفكير، ولم تنضج لديه المعرفة، ورفض الاهتداء بهدي الأنبياء والمرسلين، فإنّه يجد نفسه متنازعاً بين الأنانية المسرفة، وبين حاجته إلى العطاء لينال مطالبهُ عن طريق الجماعة، وحاجته أيضاً إلى الجماعة لذاتها، ويحتال

للتوفيق مُؤْثراً أنانيته المسرفة، وكثيراً ما يعرّض نفسه للصراع مع أنانيات الآخرين.

وحين يجد نفسه مضطراً للانتماء إلى الجماعة، يجد نفسه أمام تجمّعات بشرية مختلفة، وأحزاب شتّىٰ. ويجد أنّ كل مجموعة أو أمّة منها قد اصطلحت فيما بينها على فكرة واحدة جامعة، أو كلمة جامعة، فمن آمن بهذه الفكرة أو الكلمة أو انتمى إليها لتحقيق مصلحته، أو كان وارثاً لمضمونها وراثة تكوينية، أو وراثة نسبية، كان منتمياً إلى هذه الجماعة، يستفيد مما يستفيده المنتمون إليها، ويتحمّل من التبعات والأعباء ما يتحمّله المنتمون إليها.

الروابط الاجتماعية بصفة عامة:

ولدى استقراء وسَبْر الروابط التي تربط الجماعات والأمم في مفهوم الناس، تبدو لنا الروابط التاليات:

الأول: الرابط النسبي العرقي، ومعه عاطفة القرابة والرحم، وكلّما ابتعدت سلسلة النسب ضعفت عاطفة الرحم حتى تكون باهتة، وحين تعلو جذور النسب حتى تصل إلى أرومات بعيدة جدّاً، ينهار هذا الرابط في مشاعر الناس عادة، ويمسي ذكرى لا قيمة لها.

الثاني: الرابط اللّغوي، وهذا الرابط هو الوسيلة القريبة التي تصل الفرد بالبيئة التي يعيش فيها، ويحترمُ الإنسان هذا الرابط ويحرص عليه لأنه يسهّل له مصالحه في مجتمعه، ويشعره بأنه يشارك هذا المجتمع في وسيلة التخاطب التي يتخاطب بها.

ولكن كلّما ازداد الإنسان في تعلّم لغات الناس ضعف عنده الرابط اللّغوي الذي تعلّمه من بيئته الأولى، وقد يبقى ذكرى حلوة ومظهراً من مظاهر انتمائه لقومه، وقد يتلاشىٰ.

الثالث: رابط الأرض ذات الحدود المعيَّنة، سواء منها ضيّق الدائرة أم واسعها. بدءاً من الدار والحيّ والبلد ضيقاً، حتى الإقليم والأرض القومية اتساعاً، ثم إلى أوسع من ذلك حتى يشمل الاتِّساع أرض القارة أو الجهة من الأرض كالشرق والغرب، وحين تتسع رقعة الأرض أكثر من ذلك ينهار هذا الرابط، ويكون غير ذي قيمة.

الرابع: الرابط المصلحي، كحزب سياسي يهدف إلى استلام السلطة، والاستئثار بالمنافع والمصالح عن طريقها. أو جمعية أو شركة اقتصادية استثمارية، أو عصابة من العصابات حتى عصابات السلب والنهب واللصوصية والإجرام.

وحين يفقد الفرد مصالحه مع الجماعة المنتمي إليها من أجل تحقيق هذه المصالح، فإنّ هذا الرابط ينهار عنده أو يتقطَّع حتى يمسي شيئاً فانياً، وخبراً ماضياً.

الخامس: الرابط المنهجي، القائم على وحدة فكريّة، أو وحدة مصلحية، دينية أو اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية، أو غير ذلك.

والمذاهب الفكرية، والانتماءات الدينيّة على اختلافها، تدخل تحت هذا الرابط.

ويظلّ هذا الرابط قائماً ما دامت لدى الفرد القناعة الكافية بصحته، وحين تنهار هذه القناعة ينهار معها هذا الرابط، وينفصل الفرد عن جماعته التي كان يرتبط بها بسببه.

* * *

روابط الأمّة الربّانية الواحدة:

أمّا روابط الأمّة الربّانية الواحدة فتتلخَّص بما يلي:

١ ـ الوحدة الفكرية الاعتقادية، المتمثلة بأركان الإيمان الستة وما يتصل بها ويتفرع عنها، مع وحدة أصول التفكير ووسائل اكتساب المعرفة.

٢ ـ وحدة مصادر التشريع وأسس التصور لمفهومات

الحياة، التي تشمل الجوانب الإنسانية المختلفة: الفردية والاجتماعية، السياسية والاقتصادية، وتشمل تحديد أحكام مختلف أنواع السلوك الإنساني الظاهر والباطن: في علاقة الإنسان مع نفسه، ومع ربّه، ومع أئمة المسلمين وعامتهم، وضمن كلّ دوائر المجتمع، من الأسرة الصغيرة حتى الأسرة الإنسانية الكبرى كلّها.

٣ ـ وحدة العناصر الأساسية والرئيسية لمناهج السلوك في الحياة، باعتبارها مستنبطة بهَدْي الوحدة الفكرية الاعتقادية وهَدْي وحدة مصادر التشريع.

٤ ـ التقاء المصالح والأهداف، والمشاركة في الآلام والآمال، مشاركة حقيقية نابعة من عمق الوحدة الفكرية الاعتقادية.

ومن التقاء المصالح التعاون لبناء المجتمع السعيد، ودفع المخاطر والآلام عنه.

وهذا الرابط يستلزم الموالاة والمناصرة ضدّ الأعداء الذين يريدون مجتمع الأمّة الرّبانية الواحدة بسوء، في مفهوماته وأفكاره، أو في فرض سلوك عليه يخالف أحكام مناهجه الرّبانية، أو في التسلط عليه وسلبه ما هو حقه من خيرات.

٥ ـ مشاعر التآخي والتوادّ السعيد، حتى مستوى مشاعر الجسدية الواحدة.

٦ ـ الواجب الرّبّاني الذي يفرض وحدة الجماعة لتبليغ دين الله، وإقامة العدل في الناس.

٧ ـ مشاعر المصير المشترك الذي تمثله الأمّة الرّبّانية الواحدة في الحياة الدنيا، وأمّة السعادة في دار النعيم في الآخرة.

* * *

المقولة الثانية
تحليل الروابط الإنسانية وتقويمها

أ ـ أما الرابط النسبي العرقي: فهو رابط فطريّ لا ينكر، يبدأ بعاطفة الأمومة والأبوة، ثمّ تشتبك بها البنوّة فطريّاً، على سبيل مقابلة الحبّ بالحبّ، والخدمة والتضحية بالشكر وردّ الجميل، مع دوافع الانتماء والتعاون والتناصر والولاء والمصالح المتبادلة.

وتستمرّ مشاعر الرابط النسبيّ إلى الجدود، والأحفاد، مع تضاؤل حجمه، وتناقص قوته كلّما ابتعد.

ثم يسير مع فروع شجرة النسب من الأعلى ومن المساوي ومن الأدنى، الأقرب فالأقرب، وتمتدّ المشاعر السابقة نفسها، مع تناقصٍ في الحجم وفي القوّة، كلّما ابتعد الفرع، حتى يكون كخيط رفيع جداً، مثل خيوط العناكب.

هذه هي الرَّحِم، فالفطرة تبنيها، والعلاقات الاجتماعية الطبيعية تغذّيها، والله عزّ وجلّ يوصي بها ويأمر بصلتها وحسن معاملتها، ويجعل لها حقّاً زائداً على حقوق

الآخرين، الذين ليس بينهم رحم تدخل في شجرات النسب التي يقف الناس في حساب أنسابهم عندها.

إنّ هذا الرابط النسبيّ العرقي على الرغم من فطريته وقوته، يضعف ويتقطّع شيئاً فشيئاً، إذا لم تكن بين أفراده وحدة فكرية ولا وحدة منهجية في الحياة.

ثم إذا تباينت المبادىء والمناهج والمصالح والغايات انفصم هذا الرابط تلقائيّاً، بقدر قوة اندفاع القريبين في جهتيهما المتباينتين.

إنّ المترابطين بوشيجة قد تظلّ هذه الوشيجة قائمة بينهما ما لم يسر أحدهما مشرِّقاً والآخر مغرِّباً، وإصرار كلٍّ منهما على اتجاه مسيرته يجعل قوة اندفاعهما مسلّطةً على الوشيجة، وهي مهما كانت لا تقوى على الإمساك بهما في مكان لا يريده كلٌّ منهما، فتتقطّع شيئاً فشيئاً، مع مرونة في المطّ(٢) أولاً، ثم تنفصم نهائياً حين لا تجد قدرة على احتمال الشدّ المتباين المتناقض.

ومع أنّ الإسلام دين عالمي أنزله الله للناس أجمعين، فإنّه لم يهمل الاستفادة من الرابط النسبيّ العرقي، كرابط

---

(٢) يقال لغة: مطّ الشيء مطّاً، ومعطه معْطاً، ومغطه مغطاً: أي مدّه بغرض إطالته.

مدعِّم إيجابي، حينما لا يؤثر هذا الرابط على الرابط الإيماني الإسلامي، أو على الأخوّة الإيمانية، وحينما لا يكون بينهما تنافر. أمّا حينما يوجد التنافر فالرابط الديني هو الرابط الأقوى، وحينئذٍ فقد يُلغىٰ الرابط النسبي والقومي، ويبقىٰ منه للأبوين المصاحبة بالمعروف، وللرحم صلة كرطوبة الندىٰ، وكما قال الرسول ﷺ: «ولكنّ لهم رحماً سأبلّها ببلالها» عن رحم لم يؤمنوا.

وضمن الاستفادة الإيجابية من الرابط النسبي والقومي، أمر الله بصلة الرحم، وحرّم قطيعتها. وبدأ الرسول بدعوته للأقربين كما أمره الله، فأنذر رحمه وعشيرته الأقربين أوّل ما أنذر. واستحث الرسول ﷺ العرب إلى الإسلام بدافع الرحم والقربى، ودعاهم إلى أن يكونوا هم المجاهدين الأوّلين في الدعوة إلى الله ورفع منار الإسلام.

ولكنّ الإسلام ألغى العصبيات التي تجعل الإنسان يؤيّد الباطل انتصاراً لقومه، وتعصّباً لهم، وألغىٰ موادّة من حادّ الله ورسوله ولو كان من الأقارب القريبة كالآباء والأبناء، وأعلن الأخوة على أساس الإيمان ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، وقرَّر مبدأً إنسانياً بيّن فيه أنّ التفاضل في الانتماء إلى الدين إنما يكون بمقدار التفاضل في التقوى، فلا اعتبار لأنساب ولا لقوميّات ولا للغات ولا لألوان.

أمّا التفاضل في الصفات والخصائص فمقدار ما يملك الفرد منها دون اعتبار لنسب أو قوم أو لغة أو لون.

ب ـ **وأمّا الرابط اللّغوي:** فبُعْدُهُ الفكريُّ والنفسيُّ لا يزيد على كونه رابط مصلحة التفاهم بين أفراد المجتمع. وحين ينضمُّ إليه رابط النسب القومي فإنّه يكون حينئذٍ معبّراً متجدّداً حيّاً عن الانتماء إلى القوم، ومذكراً بالاعتزاز بأمجادهم وتراثهم.

إنّ الفرد الذي يتكلّم بلغة البيئة الاجتماعية التي يكون فيها يستطيع أن يحقق من مصالحه الشخصيّة في تعامله مع هذه البيئة الاجتماعية أكثر بكثير من الذي لا يحسن التكلّم بلغتها.

فهو يشعر بأنّ اللّغة تربطه بالجماعة ارتباطاً يحقّق به لنفسه التفاهم مع أفرادها، وتيسير مصالحه التي يريدها، فوسيلة التعبير التي لديه هي وسيلة التعبير نفسها التي لدى أفراد بيئته.

وحين تكون هذه اللغة هي اللغة التي نشأ عليها وتعلّمها من أمّه وأبيه وقومه، فإنها تكون حينئذٍ مظهراً من مظاهر الرابط النسبي، وهو في دائرته الواسعة مظهر من مظاهر الرابط القومي.

ويكون الرابط اللغويّ حينئذٍ مدعّماً بالرابط النسبيّ، أو الرابط القومي، ويعطيه ذلك قوةً مشتقّةً من الأنانية، ومن

افتخار الإنسان بنفسه وأسرته وقومه، واعتزازه بأمجادهم، نظراً إلى أنّ اللّغة من الظواهر الحضارية التي يفتخر بها أهلها، ويعتبرونها جزءاً من كيانهم، ولا سيّما إذا اشتملت على ما يصحّ أن يفتخر به، في بنائها المتقن، أو تعبيراتها الحضارية والفكرية الراقية، أو اشتملت على معارف وعلوم تدلّ على تراث أهلها العلمي المجيد.

وللرابط اللّغويّ قيمته، ولاسيما إذا كان موصولاً بالرابط النَّسبي أو القومي. ولكنّ هذه القيمة تضعف وتتنازل حتى تتلاشئ أحياناً، حينما يتعلّم الإنسان لغة أخرى، وترتبط مصالحه الحياتية بهذه اللّغة الجديدة، وبعد حين تصير عاطفته نحو لغته الأمّ عاطفة ذكرى قديمة، فإن كانت هي لغة أسرته وقومه شدّته إليها العاطفة النسبية، والعصبية القوميّة، وإلاّ أسقطها من حسابه ونسيها ولم يعُدْ لها عنده قيمة.

وحين تنقطع بينه وبين قومه الوشائج لتباين المبادىء ومناهج الحياة، وتباين الأهداف والغايات، فإنّ اللّغة تفقد حينئذٍ كُلَّ ما كان يدعمها من عاطفة نسبية، وعصبيّة قوميّة، وتظل في نظره كلغة من اللّغات التي تتكلم بها الشعوب، يحرص عليها بمقدار ما ينتفع منها في حياته العملية أو العلميّة.

ومع أنّ الإسلام دين عالميّ أنزله الله للناس أجمعين، فإنّه قد حرص على أن تكون لغة القرآن لغة يتكلّم بها جميع الذين يؤمنون به، وينتمون إليه، ليكون بينهم رابط لغويّ مضاف إلى الروابط الجذرية الأساسية الأخرى، مع الإذن بأن تتكلّم الشعوب المختلفة بلغاتها القومية، فاختلاف الألسنة والألوان من آيات قدرة الله وإتقان صنعته، وقد أبان القرآن الكريم هذه الحقيقة.

جـ ـ وأمّا رابط الأرض ذات الحدود المعينة: فهو يرجع إلى أربعة عناصر، تدور حولها عواطف الناس:

العنصر الأول: الذكريات الحلوة وإيلافها، وهي التي يعبّر عنها الأدباء والشعراء بمثل العبارات التاليات:

«ملاعب الطفولة ـ مراتع الشباب ـ مواطن سمرنا وأنسنا ـ هنا نشأت وترعرعت ـ من هذه العين كنت أشرب ـ في هذه الساحة كنت ألعب ـ هنا أركبني عمّي على حصانه ـ هنا مسح جدّي على رأسي بكفّه وبنانه».

إلى أشباه هذه المقولات الأدبية، التي تعبّر عن ذكريات سارّات.

ولكنّ هذه الذكريات الحلوة السارّة تفقد قيمتها في النفس، حين يعيش الإنسان في أرضٍ أخرى تؤويه وتحميه، ويجد فيها رزقه ومتعته وأمنه، فتكون الحقيقة الحلوة الحاضرة أقوى من الذكريات الحلوة الغابرة.

ولاسيما إذا تعرّض في أرض الذكريات الحلوة الغابرة لآلام ذاق مرارتها، من جيرة فاجرة، أو سلطة ظالمة آثمة، أو مجتمع فسد ولم يبق بينه وبين أفراده لقاء ودّي، ولا انسجام فكري أو سلوكي، ولا وحدة في منهاج الحياة.

العنصر الثاني: آثار تاريخيّة وحضارية تتصل بأمجاد الإنسان نفسه، أو أمجاد أسرته، أو قبيلته، أو قومه، أو الأمّة التي ينتمي إليها.

إنّ هذه الآثار تشدُّ الإنسان إلى الأرض، عن طريق الوشائج التي تشدّه إلى أسرته أو قومه أو أمته التي ينتمي إليها، وهي وشائج عاطفية لا عقلية، فهي في هذه الحالة فرع من فروع الانتماء إلى القوم، فإن كان مشدوداً إلى قومه بعاطفة صحيحة، شدّته إلى أرضهم آثار قائمة فيها تدلّ على أمجادهم، وإلاّ غدت هذه الآثار في نظره مشاهد باهتة، تكتسحها مشاهد أخرىٰ تصله بها فكرة قوية، أو مصلحة حاضرة أو مرجوة.

العنصر الثالث: التملّك، فإذا كان للإنسان في الأرض ملك لنفسه ينتفع هو به، أو ملك لأسرته، أو لقبيلته، أو لقومه أو للأمّة التي ينتمي إليها، وله من ذلك منفعة ما، ولو على سبيل الاعتزاز والافتخار فإنّه يجد في نفسه ما يشدُّه إلى هذه الأرض.

ولكن إذا تعارض ذلك مع مصلحة له أوفر وأعظم في أرض أخرى، ولم يمكن الجمع بين الأمرين، فإنّه يجد نفسه مُؤْثِراً ما يرى أنّه أفضل له وأحسن، ومضحّياً بما هو أقلّ وأدنى، ثم يضمحلّ ذلك الأقل الذي ضحّى به شيئاً فشيئاً، حتى لا يبقى له بتلك الأرض أي ارتباط نفسي.

العنصر الرابع: العاطفة الدينية، وذلك إذا كان للأرض أهميّة دينية، لدين من الأديان، في تصوّر الإنسان المؤمن بذلك الدين.

كأن تكون الأرض قبلته في الصلاة، أو محجّه، أو بلد الرسول الذي يؤمن به ويتبع شريعته، أو مهبط الوحي الذي آمن بما جاء عنه، أو قاعدة انطلاق الأمّة الدينيّة التي ينتمي إليها.

وتبقى هذه العاطفة نحو الأرض ذات الأهمية الدينية الخاصة، ما بقي إيمان الفرد بهذا الدين، تقوىٰ بقوته، وتضعف بضعفه، ولعلها أقوى عواطف الناس نحو الأرض، لأنّ الدين أقوىٰ العوامل في النفوس البشرية حين يكون سليماً صحيحاً.

د ـ **وأمّا الرابط المصلحي**: فهو منوط بدوام المصلحة، يقوى بقوتها، ويضعف بضعفها، وينتهي عند نهايتها، ويتحوّل عند تحوّلها.

ونقول فيه: حيثما وجدت المصلحة وجد من يكون ارتباطه بها، وحيثما وجدت المغانم وجد طلابها، وإذا سال السيل أقبل الواردون.

وهذا الرابط المصلحي، لا يصحّ أن يكون رابطاً إنسانياً ثابتاً يؤثر في عمق النفس الإنسانية.

ومن خلال استقراء وسَبْر الروابط الإنسانية وتحليلها، يتبيّن لنا أنّ أقوى الروابط الإنسانية وأعمقها، وأثبتها، وأشملها، وأكثرها مقاومة للزلازل والأعاصير الاجتماعية وضدّ مكايد أعدائها، إنّما هي روابط الأمّة الرّبانية الواحدة.

* * *

الفصل الثالث

شرح روابط الأمة الرّبانيّة الواحدة والوشائج المؤازرة لها

وفيه مقدمة ومقولتان:

المقولة الأولى: نظرة عامة حول المفهومات الإسلامية لأسس الوحدة الجماعية.

المقولة الثانية: شرح وتحليل روابط الأمة الربانية الواحدة والوشائج المؤازرة لها.



(١) مقدمة

إضافة إلى الروابط السبعة للأمّة الرّبانية الواحدة، وهي الروابط التي سبق بيانها في الفصل السابق، توجد لهذه الأمّة الربّانية وشائج أخرى، تنضم إلى هذه الروابط، فتقوّيها وتشدّ من أزرها.

وحينما تكون هذه الروابط والوشائج المؤازرة صحيحة غير مدخولة ولا فاسدة، فإنها تستطيع أن تحمي الأمّة الرّبّانية الواحدة من أن تتسلّل إليها عوامل الفرقة التي تقذف بها الأنانيات، أو يوسوس بها شياطين الإنس والجن.

ومن حقّ المستبصرين أن يطلبوا المزيد من شرح وتحليل روابط الأمّة الرّبانيّة الواحدة، ويطلبوا بيان الوشائج المؤازرة لها في مفهوم الإسلام.

المقولة الأولى
نظرة عامة حول المفهومات الإسلامية لأسس الوحدة الجماعية

ننطلق في هذه النظرة مع سلسلة الوجود، من الأزلي إلى الحادث. من الخالق إلى المخلوق. من الجذور والأصول إلى الفروع وفروع الفروع.

أولاً: الله هو الأزليّ الأبديّ وحده، وهو عزّ وجلّ الخالق لكل ما سواه. قال الله تعالى في سورة (الرعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ (١٦).

ثانياً: الكائنات كلّها سوى الله، هي خلق من خلق الله، فهي جميعاً مشتركة في أنّ الله الواحد ربُّها جميعاً، وهو الذي منح كلّ جنسٍ ونوع وصنف وفرد منها خصائصه، وفضَّل بعضها على بعضٍ في الخلق، وفق حكمته المستندة إلى علمه المحيط بكلّ شيء،

والمحيط بكلّ الاحتمالات الممكنة المتناهية وغير المتناهية.

ثالثاً: الأجساد الحيّة في الأرض مخلوقة بخلق الله من أصل مادّيّ واحد، هو الماء وأخلاط من تراب الأرض.

قال الله تعالى في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ (٦).

رابعاً: الإنسان قد بدأ الله خلقه من الطين فرداً واحداً، وهو آدم، ثم خلق منه زوجه، ثمّ جعل التكاثر البشري قائماً على سنة التناسل، وهي تعتمد من ناحية البناء الجسدي على تحوّلات الطين إلى أغذية نباتية، وتحوّل الأغذية إلى دماء، فنطف، فأجنة، فمواليد.

فالناس كلّهم لآدم، وآدم من تراب وماء. وخصائص النوع الإنساني في أسس الصفات النفسية والخلقية والموازين الفكرية والمكوّنات الجسدية متماثلة في أصولها، وإن اختلفت في نِسَبِها وتأثير اختلاف

البيئات لا يصل إلى جوهر النوع ولبّه، بل يظلّ في السطوح، كالتأثير البيئي الصغير الذي يحدث في المجتمعات الصغرى القومية والإقليمية والأسرية..

خامساً: ومن التكاثر التناسلي نشأت السلالات البشرية كلها. قال الله تعالى في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (٢١).

سادساً: ومن لقاء الأزواج تتكوّن الأسر. وتقتضي طبيعة توزيع المسؤوليات الاجتماعية أن تكون للتوزيع قواعد. وقد اقتضت حكمة الخالق أن يجعل هذه القواعد عواطف فطرية في الأنفس، فألقى في الناس وسائر الأحياء حبّ الذرية والعطف عليها، لتتحمّل الأصول مسؤوليات حماية الفروع وخدمتها بشكل طَبَعيّ، ولو لم تنزّل لها شرائع تكليفيّة.

سابعاً: ويرافق تكوّن ظاهرة الاجتماع البشري، الحاجة إلى التفاهم والتخاطب، فعلّم الله الناس وسيلة التخاطب عن طريق اللسان، بالوحي أو بالإلهام، ثمّ تكاثرت المفردات اللغوية بالأوضاع الاصطلاحية.

ثامناً: ومع تكاثر الأسر وتعدّد الآباء والجدود،

وتزايد الفروع وفروع الفروع، تكوّنت القبائل وأقسامها، وهذا لازم طَبَعِيٌّ لنظام التكاثر عن طريق التناسل المتتابع وفق سلسلة هندسية.

تاسعاً: ويضيق المكان الواحد عن استيعاب المتكاثرين، وقد يحصل التنازع، ويكون الحلّ الطَّبَعِيّ دائماً بالهجرة والانتقال إلى مكان آخر يتحقّق فيه الرزق والسكن والأمن.

عاشراً: ومع تباعد الأمكنة، واختلاف بيئاتها الطبعيّة ومناخاتها الإقليمية، وانقطاع الصلات، وتطاول الأزمنة، وتزايد حاجات الناس إلى التعبير اللّغوي عمّا يجدُّ لديهم من مطالب وأفكار، وتدخُّل عوامل كثيرة من المصالح المختلفة، ومن الابتكارات التي لا تنتهي في الناس، ومن النزعات الوراثية، تحصل في الناس ظاهرتان:

الأولى: ظاهرة تعدّد اللّغات (وهي الألسنة).

الثانية: ظاهرة اختلاف الألوان.

قال الله تعالى في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

حادي عشر: وهذا النظام الطَبَعِيّ الذي نشأت عنه

لزوماً القبائل والشعوب والصفات الفردية وغيرها، يهدف إلى حكمة التعارف باختلاف الصفات والتقسيمات.

ولو اتّحدت الصفات البشرية بين أفراد المجتمع البشري، كما نجد أحياناً بين التوأمين المتماثلين تماثلاً تامّاً، أو لم يكن في المجتمعات تقسيمات، لما أمكن التمييز، ولاختلطت الأمور، وضاعت المسؤوليات، ولفسدت أمور الاجتماع البشري، ولكان الناس أشبه بإنتاج المعامل للمتماثلات التي لا تميّز أفرادها إلاّ بالأرقام التي توضع عليها.

والاختلاف في الخلق هو أيضاً آية من آيات الله على أن هذه الكائنات صنعة خالق ذي إرادة حكيمة، فلولا هذا الاختلاف في الأفراد مع تكاثرها العظيم، لقامت شبهة الضرورة الطبْعِيَّة، التي ليس فيها إرادة ولا اختيار في الخلق.

قال الله تعالى في سورة (الحجرات/ ٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

ثاني عشر: والإنسان تشدّه إلى نفسه محبّةُ ذاته، وهي فطريّة، وقويّة جدّاً، فإذا أفرطت كانت أنانية قبيحة، وتشدّه بعد ذلك عاطفة الأبوة والبُنوَّة، وقد تكون أحياناً مثل عاطفة الذات، وقد تغلو أكثر من ذلك. ثم عاطفة الأخوّة، ثم عاطفة ما وراء ذلك من رحم، وهذه أيضاً فطرية.

فإذا أثَّرت هذه العاطفة، فجنحت بصاحبها عن منطق الحقّ والعدل، كانت عصبية مقيتة، وهي ما يعرف بالعصبية الجاهلية، ويتولّد عنها التقليد الأعمى، والمناصرة بالباطل، والتحزّب الشيطاني.

وتتدخل هاتان العاطفتان (عاطفة الأنا، والعاطفة نحو الأسرة القريبة) في صناعة العواطف الفرعية المتصلة بهما، وهي العواطف نحو الأسرة الأكبر، التي تتّصل بالجد القريب، فالبعيد، فالأبعد، فمن فوقه حتى القبيلة، وهنا تبرز معالم العاطفة القبلية، فإذا أثَّرت هذه العاطفة القبيلة، فجنحت بصاحبها عن منطق الحقّ والعدل، كانت عصبية قبلية جاهلية مقيتة.

ثم تأتي العاطفة نحو القوم الذين لهم جدّ بعيد، وتربطهم مع ذلك أرض ذات حدود، ولغة ذات كيان خاص، وهي عاطفة لا تنكر على أصحابها، حتى تؤثر

على نفوسهم تأثيراً يجنح بها عن منطق الحقّ والعدل والخير، فإنْ أثّرت كانت عصبية قومية جاهلية مقيتة.

وكلّما اقتربت حبال النسب إلى الذات كانت أغلظ وأمتن وأقوى، ومع امتداد طول هذه الحبال تقلُّ غلاظتها، وتضعف قوتها، حتى تكون عند الأبعدين خيوطاً كخيوط بيت العنكبوت.

هذه كلها أمور فطرية، إذا أضيفت إليها عوامل أخرى موثّقة زادت قوّتُها، وإذا عارضتها عوارض أقوى منها أضعفتها أو قطّعتها، أو عطّلت عملها، ريثما تنتهي هذه العوارض.

وحينما تكون العوارض مناقضة لأصل كيان الإنسان، كأن ينكر الابنُ أباه إنكاراً كليّاً، ويجحد حقه عليه، ويعلن عداءه له، فإنه يقطع بسلوكه هذا حبل بنوّته، وما تجرّ هذه البنوّة من عواطف، عندئذٍ تتقطع تلقائيّاً عاطفة أبيه نحوه، ويخرج من دائرة الأسرة، وكأن ينكر الفرد انتماءه إلى قومه، وكأن يجحد الإنسان أنّه مخلوق لله خالقه، كلّ ذلك يخرجه من دائرة الجماعة.

ثالث عشر: ومن منطلق حبّ الإنسان لذاته،

يحبّ زوجته الحبيبة، لأنّ لديها متعته وطمأنينة نفسه، ولأنها شريكته في إنجاب ذرّيته، وقد يصل الحال بالزوجين من الودّ والتفاهم والانسجام إلى أن يشعرا أنهما كشيء واحد. وهو أمر يباركه الإسلام ما لم يَطْغَ على حق أو واجب أو فضيلة.

رابع عشر: ومن منطلق حبّ الإنسان لذاته يحبّ صديقه، وشريكه المخلص الناصح الأمين، الذي يجد في مشاركته مصالح وخيرات لنفسه ولمن يحب، وهي أمور لا تتحقق له لو انفرد بنفسه مستقلاً.

وهذا الحب أمر يباركه الإسلام ويحث عليه، ما لم يَطْغَ على حق أو واجب أو فضيلة.

خامس عشر: ومن منطلق حبّ الإنسان لذاته، يحبُّ ما يجلب له أو لمن يحبّ لذّة، أو منفعة، أو مصلحة، أو أيّ خير. ويكره ما يجلب له ألماً، أو مضرّة، أو مفسدة، أو أيّ شرّ، عاجلاً كان ذلك أو آجلاً.

وتتحكّم في كل ذلك مفهوماته للأمور. أمّا مفهوماته فهي تابعة لمدى رؤيته وإدراكاته الخاصة، ونظراته الذاتية إلى الأشياء، مع تجاربه التي كان لها تأثير ما على مشاعره بلذّةٍ أو ألم.

فالذي يرى أنّ المال هو القوة التي تجلب له محابّه في الحياة، وتدفع عنه ما يكره، يسيطر عليه حبّ المال والسعي في طلبه.

والذي يرى أنّ الجاه هو القوة التي تجلب له محابّه، وتدفع عنه ما يكره، يسيطر عليه حبّ الجاه والسعي في طلبه.

والذي يرى سعادته في إرواء لذّة بطنه أو فرجه، يسيطر عليه حبّ ذلك والسعي في طلبه.

وتتعارض التصوّرات في الإنسان، وتتدخل في ترجيح بعض الأنواع على بعض قوّةُ الممارسة لمشاعر اللذات والآلام، مع حالة الاستعداد النفسي والجسدي للإحساس بمشاعر اللذة والألم قوةً وضعفاً.

فيضحّي بعض الناس بالجاه والمجد والكرامة الاجتماعية لتحصيل لذة الجنس أو لذّة جمع المال، لأنّ شعوره بلذّة الحياة والمجد هو الشعور الأضعف بالنسبة إلى ما هو مقبل على تحصيله.

ويتفاضل الناس في نسب ما لديهم من غرائز شدّةً وضعفاً، وبحسبها تكون نظراتهم إلى مطالبهم. وتتدخل في الموازنات إدراكات الناس للأمور، وهذه ذوات نِسَب متفاوتات متفاضلات أيضاً.

فمن شديد الشَّبَق إلى عِنِّين، ومن شديد الشّره إلى ضعيف الشهوة إلى الطعام، ومن شديد الحرص على الحياة إلى زاهد فيها يائس منها.

ومن حادّ الإدراك شديد الملاحظة، إلى ما دون ذلك حتى البلادة المفرطة.

وتتدخّل أيضاً سوابق الخبرات في شدّة الرغبة والحبّ، أو في شدة الرهبة والكراهية، فمن مارس الاستمتاع بشيءٍ ما اكتسب نحوه عادة تكرير هذه الممارسة، فتتدخل الذكريات الحلوة في طلب إعادة التجربة ودوامها. ومن مارس التألم من شيء ما اكتسب نحوه ذكريات مرّة، تنفّره بشدّة من إعادة التجربة، وتزيده كراهية لها، فتصوّراته الذهنية عنها قد أكّدتها التجربة، واقترنت بها مشاعر واقعيّة، فانتقلت من مجرّد رؤية ذهنية إلى واقع مُحَسّ.

الرؤية الإيمانية:

وتأتي الرؤية الإيمانية فتصنع مفهومات وقناعات واسعات، تدخل في حسابها الحياة كلّها بكلّ أبعادها الحالية والمستقبلية، حتى الأبدية، ونلاحظ من هذه الأبعاد ما يلي:

أ ـ البُعْدَ الفكري والنفسي والروحي.

ب ـ بُعْد الواقع الجاري.

ج ـ بُعْد المستقبل في الحياة الدنيا.

د ـ بُعْد المستقبل الآخر الآتي بعد الموت.

هـ ـ تصحيح الرؤية لدوائر اللّذات والآلام العاجلة وأسباب تحصيلها.

و ـ تصحيح الرؤية لدوائر إمكانات الأسباب في تحقيق المطالب، ضمن سلطان المقادير الغلاّبة التي لا وسيلة لمقاومتها (وللمؤمن هنا موقف فكري وعملي تجاه القضاء والقدر واتخاذ الأسباب التي أمر الله باتِّخاذها).

والمفهومات الإيمانية تختلف في نقاط كثيرة عن المفهومات الماديّة التي تنحصر تصوّراتها ضمن حدود الحياة الدنيا، وتسيطر عليها الأنانيات التي تطغىٰ في معظم أحوالها على الحق والواجب والخير والفضيلة.

سادس عشر: وحين تتعرّض المصلحة الذاتية للإلغاء الكامل، تجاه مصلحة الآخرين، فالإنسان العادي يؤثر عقلاً وواقعاً مصلحة ذاته، حتى على مصلحة أقرب الناس إليه، إلاّ في حالات الجنون العاطفي نحو

العشيق أو الولد، أو حينما يرى أن البلاء نازل بالجميع لا محالة، إلاّ إذا فدى من يحبّ بنفسه، فإنّه قد يفديه بنفسه حينئذٍ.

وللمؤمن هنا رؤية إيمانية تتصل بالخير والفضيلة وابتغاء رضوان الله والجنة، وهو من أجل رضوان الله والجنة يضحّي بكل مطالبه ومصالحه ولذّاته في الحياة الدنيا.

سابع عشر: أمّا العاطفة الوطنية فقد تكون عاطفة مركّبةً، تنضوي تحتها العاطفة نحو الأرض ونحو الأسرة أو القبيلة أو القوم، وقد تقتصر على العاطفة نحو الأرض. وقد سبق تحليل هذه العواطف، وبيان موقف الإسلام تجاهها.

إنها وحدها لا تكفي لصناعة أمّة متماسكة ذات وحدة رصينة، لكنّها قد تكون قُوّةً مساعدة مؤازرة، وحينما تتنافر المفهومات والعقائد، أو تتباين المصالح ومناهج السلوك في الحياة، تضمحل العاطفة الوطنية حتى تتلاشى، والأمثلة من التاريخ الإنساني على ذلك كثيرة في القديم والحديث.

المقولة الثانية شرح وتحليل روابط الأمة الربانية الواحدة والوشائج المؤازرة لها

إنّ الإنسان فكر، وقلب، ونفس، وجسد، وشهوات، وأهواء، ومطالب حياة، ومصالح عاجلة وآجلة، وحركة حياة في سلوك نفسي وجسدي.

وكلّما كانت نسبة الروابط بين الأفراد من عناصر الإنسان هذه أوفر وألصق بجوهره الإنساني، كان الارتباط أشدّ قوّةً، وأبقى مع الزمن، وأثبت في مواجهة عوامل الفرقة، وأصبر على كفاح المفرّقين من شياطين الإنس والجنّ.

أولاً: إنّ فكر الإنسان وقلبه أقوى عنصرين جوهريين أساسيّين مميّزين لكيانه، فما يثبت فيهما من مبادىء وحقائق تكشف للإنسان ما ينفعه ويسعده، وما يضرّه ويشقيه، ينعقد في ذاتيهما انعقاداً اتحاديّاً بهما، حتّى كأنّه جزءٌ من ذاتيهما.

وما ينعقد فيهما يكون له فعل قويّ جدّاً، في توليد عواطف الإقبال والنفور، والحبّ والكراهية، وفي توجيه هذه العواطف وتحريكها شطر نشاطات السلوك.

وتجتمع العواطف وثوابت المفهومات والعقائد لتوجيه الإرادات التي تحدّد نوع السلوك ومقداره، ومقدار الطاقة التي ينبغي أن تبذل له.

ثمّ تجتمع العواطف وثوابت المفهومات والعقائد مع الإرادات للقيام بالعمل اللازم، أو بالأعمال اللازمة لتحقيق الغايات والمطالب.

فإذا التقى فكران وقلبان على الإيمان بمبادىء وحقائق واحدة، كانت هذه المبادىء والحقائق بمثابة نظام قوي جدّاً، ينتظم فيه القلبان والفكران، وكلّ فكر وقلب يؤمن بهذه المبادىء والحقائق يجد نفسه منتظماً بهذا النظام المتين، وملتقياً مع نظرائه في عقد جماعة واحدة، آصرتها وحدة الفكر ووحدة الاعتقاد. وفي هذا النظام المتين ينتظم جميع أفراد الأمّة الربّانية الواحدة.

وبهذا يتحقق رابط الوحدة الفكرية الاعتقادية للأمة الربّانية، وهذه الوحدة الفكرية الاعتقادية للأمة الرّبانية، قائمة على الحقّ، المؤيّد بالبراهين والأدلة العقلية والحسيّة والعلمية القادرة على الإقناع، أو الإلزام بالحق

المستند إلى موازين العقول التي فطر الله الناس عليها، وجعلها سواءً بين الناس.

ولا تقوى أيّة وحدة فكرية اعتقادية عرفها الناس على منافسة أو مجاراة الوحدة الفكرية الاعتقادية للأمّة الرّبانية الواحدة.

إنّ وحدة العقيدة ذات الأساس الفكري الصحيح، هي النظام المتين الذي ينتظم حبّات العقول والقلوب، في عقد جماعيّ واحد، شديد التماسك والترابط والانسجام، مع كمال وعي فكريّ، وصحوة نفسيّة، بخلاف العقائد التي ليس لها أساس فكري صحيح، فقد تعقد وحدة جماعية، لكن دون وعي فكريّ، ولا صحوة نفسيّة.

وحينما تنعدم وحدة العقيدة، ويوجد التنافر في عقائد الأفراد حول النشأة، والمصير، وواجب الإنسان في الحياة، فإنّ الركن الأساسيّ لوحدة الجماعة قد اعتلّ، وصار قوّةً تنافريّة مضادّة لوحدة الجماعة، ثمّ لا تقوى الأواصر الأخرى لو وجدت على الإمساك بهذه الوحدة مدّة طويلة، ولا على الصمود الإيجابي ضدّ قواها السالبة.

وفي حركية البناء بدأ الإسلام بإقامة الوحدة الفكرية الاعتقادية للأمّة الرّبانية الواحدة.

فدعا الناس إلى الإيمان بالإسلام دون تخصيص ولا تمييز، وأنزل الله على رسوله ﷺ في المرحلة المكية قوله في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾(١٥٨).

ثم أنزل عليه في المرحلة المكية أيضاً قوله في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (٢٨).

ثمّ أنزل عليه في المرحلة المكية أيضاً قوله في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾.

آذنتكم على سواء: أي أعلمتكم أيّها الناس برسالتي التي أرسلت بها إلى الناس أجمعين، والتي هي رحمة للعالمين، إعلاماً على سواء بينكم، لم أخصص فيه ولم أميّز.

وقد بلّغ الرسول ﷺ ما أمره الله به، ونادى الناس جميعاً، فدعاهم إلى الإسلام، والانتظام في نظام

هذه الأمّة الربّانية الواحدة، وألغى المفهومات الجاهلية الباطلة، التي تزعم التفاضل بين الناس على أساس العرق أو اللون أو اللغة، وأثبت التفاضل الطبيعيّ الحق القائم على أساس الإيمان، والتقوى، والعمل الصالح، والعلم النافع، والخصائص الذاتية الشخصيّة.

وطفق التنزيل الربّاني والبيان النبوي يبنيان القاعدة الإيمانية، على أسسها الفكرية ذات البراهين القاطعة، والحجج الدامغة.

وهذه القاعدة الإيمانية ذاتُ الوحدة الفكرية تعطي الإجابة الحاسمة المقنعة لمن ابتغى الحق، عن كبريات الأسئلة التي تشغل فكر الإنسان في هذه الحياة.

وحينما يقتنع الفكر الإنساني بالحقائق التي قدّمتها الوحدة الفكرية الإسلامية، تتنزّل عليه السكينة، وتسري فيه لذّات الطمأنينة.

ثم تُحسّ العاطفة من وراء الفكر بما انتهى إليه الفكر من علم جازم مقطُوع به، فتشارك بالإذعان والتسليم وإعلان الانقياد، وبذلك يتحقق الاعتقاد الإيماني.

فالوحدة الاعتقادية في الإسلام تشتمل على علمٍ

يقيني، مقترنٍ بإذعانٍ قلبيٍّ، وتسليم كامل، وعاطفة منقادة للفكر مثيرة للإرادة، وهذا ما يُسَمَّىٰ بالإيمان.

إنّ جوهرة الإيمان المطلوب في الإسلام إنّما تتحقق بانتقالٍ طَبَعِيّ من مرحلة الاقتناع الفكريّ الكامل، إلى انقياد العاطفة واستسلامها، إلى إذعان الإرادة وتسليمها.

فالإيمان قرار إرادي بالاعتراف بالحق، ممزوج بعاطفةٍ ذاتِ وقودٍ حراري دافعٍ أو مانعٍ.

ولا يحجب الانتقالَ الطَّبَعِيّ عن التحرُّك من الاقتناع، إلى انقياد العاطفة، فإذعان الإرادة، إلاّ عقبة صادّة من عقبات النفس، وهي تمثل جنوحاً خلقيّاً شائناً، كالكبر، والحسد، والتعصّب الأعمى، والرغبة بالفجور وفق دوافع الأهواء والشهوات.

ثانياً: وبعد الفكر والقلب وما ينتظمهما مع الجماعة في نظام واحد هو نظام الوحدة الفكرية الاعتقادية، يأتي منهاج السلوك الإنساني، في حركة الحياة النفسية والظاهرة.

فإذا كان هذا المنهاج واحداً نابعاً من منابع الوحدة الفكرية الاعتقادية، كان من شأنه أن يعقد آصرة

الصحبة والرفقة على الطريق الواحد، حتى الاتّحاد المتماسك بين جميع السالكين فيه، في حركةٍ متناظرةٍ منسجمةٍ على وجه العموم، ذات تواتر واحد أو متقارب، وإيقاع واحد أو متقارب، وذات اتجاه واحد.

ولا يضير هذا المنهاج ذا الاتجاه الواحد اتساعه قليلاً ذات اليمين وذات الشمال، وهو الاتساع القابل لاجتهاد السالكين في تحديد خطوط السَّيْر فيه، ولا يضره أيضاً سبق السابقين فيه، أو ترخص المترخصين، أو تقصير المقصِّرين.

فمن الخير في هذا الطريق أن يكون كذلك متّسعاً لتحقيق أمرين:

الأمر الأول: المرونة الاجتهادية تكريماً للفكر الإنساني.

الأمر الثاني: مواءمة أحوال الناس الإرادية، ودرجاتهم بين مراتب الإحسان، والبرّ، والتقوى، والخلط بين الأعمال الصالحة والسيئة.

فمنهاج السلوك الواحد يعقد تلقائيّاً أواصر الصحبة والإخاء بين الأفراد السالكين فيه، ويجعل منهم أمّة واحدة.

ولـمّا كـان الـمؤمنون الـمسـلمون، يـنطـلقـون فـي تحديد منهاج سلوكم النفسي والظاهر لحركة حياتهم، من منطلق إيمانهم بالله وبكتابه وبرسوله، كان الواجب يفرض عليهم أن يرجعوا إلى كتاب الله وسنة رسوله في تحديد هذا المنهاج، ومن هنا استبانت لهم المصادر التشريعية، التي يستقون منها منهاج سلوكهم في حركة حياتهم.

فالتقَوا على مصادر تشريعية أساسية واحدة، أمّا ما نـجـم مـن خـلاف فـي بـعـض الـمـصـادر الـفـرعـيـة، أو الاجتهادات في بعض الأمور والأحكام الفرعيّة، فلم يكن له أثر على وحدة المنهاج، وإنما جعل له اتساعاً في عرضه، مع بقاء وحدة الاتجاه فيه.

وكان هذا الخلاف الجزئي الذي لم يؤثر على وحدة المنهاج، ولا على وحدة اتجاهه، تنفيساً حكيماً لنزعة الخلاف في طبيعة الإنسان، وكان هذا التنفيس تدعيماً وتثبيتاً لاستمرار مسيرة الأمّة الواحدة على المنهاج الواحد، ذي الاتساع الذي لا يؤثر على وحدة اتجاهه، ولا يهدم أصلاً من الأصول الاعتقادية، أو أصول الحق والعدل والخير والفضيلة والكمال لمنهاج السلوك، ولا يهدم أيّة كليّة من الكليات التي أمر الله بها

أو نهى عنها، كالكلّيّات المعلنة في قول الله تعالى في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

ولو كان هذا المنهاج ضيّقاً لا اتّساع فيه، لكان حَرجاً على المسلمين، ولكان فتنة كبرى لأصحاب نزعات الخلاف، ولربّما دفع الكثيرين منهم إلى أن يخرجوا منه كلّيّاً ويتحوّلوا عنه، ويختطوا لأنفسهم مسالك تتجه بهم اتجاهات أخرى مخالفة أو مباينة لاتجاهه، كما حصل في الأمم السابقة، وهذا من عناصر واقعيّة منهاج السلوك الإسلامي.

ولو كان هذا المنهاج ضيّقاً حرجاً لا اتساع فيه لكان إصْراً على المؤمنين، وقد علّم الله المؤمنين أن يدعو ربّهم بالدعاء التالي كما جاء في آخر سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ

أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

إصْراً: الإصر هو التكليف الثقيل الشديد الذي يشقّ على الناس القيام به والطاعة فيه.

وكان إنزال هذا النص في أوائل المرحلة المدنية، مع بدايات تنزُّل أحكام منهاج السلوك والتكاليف الْعمليَّة الإسلامية.

وضمن هذا المفهوم ظهر عنصر الوحدة التشريعية التي تحدّد سلوك الأمّة الربّانية الواحدة، في عباداتها، وفي معاملاتها، وفي أخلاقها، وفي سائر نظمها.

إنّ هذه الوحدة التشريعية ذات أسس عامّة واحدة بين جماهير المسلمين، من أهل السنة والجماعة. والخلافات فيها خلافات جزئية لا تمسّ الأسس الجوهرية العامّة المشتركة، وهي مع الزمن وتمحيص المسائل بالرجوع إلى أدلتها قابلة لأن تتقارب شيئاً فشيئاً، ولاسيّما إذا اقتلعت جذور التعصب المذهبي، وانتشر العلم بين الناس، واتسعت دائرة المعرفة.

على أنّ الخلافات الجزئية ـ كما أشرت آنفاً ـ أمور تقتضيها طبيعة اختلاف الناس في اجتهاداتهم، وفي نظراتهم إلى الأمور الفرعيّة، وقد ترك الإسلام

للمسلمين هذا المجال الاجتهاديّ في الفروع، بعد أن شدّهم إلى الأصول شدّةً واحدة، ليدرّبهم على خلق التسامح، واحترام كلٍّ منهم رأي أخيه، وما انتهىٰ إليه اجتهاده المأذون به في استنباط أحكام الفروع، وليكون خلق التسامح هذا مسايراً لهم، ومهيمناً على شؤونهم كلّها، حينما تختلف آراؤهم في أمورهم السياسية، والاقتصادية، والإدارية، والاجتماعية، وغير ذلك، ممّا يتعلّق بمصالحهم السياسية البَحْت، المتروكة في نظام الإسلام لاجتهاداتهم، تكريماً لهم بمنحهم ذاتيَّةً مأذونة بالبحث والاستنباط، وليكتسبوا ملكة استنباط الأحكام لكلّ ما يجدّ من أمور، مما يصعبُ على الناس استيعاب تفصيلاته، فيما لو فُصّل لهم في كتابهم التشريعي المنزل.

مع ما في الإذن باختلاف الآراء الاجتهادية من سَعةٍ للمسلمين، وفسحةٍ في دينهم.

ولكنّ للاجتهاد في استنباط الأحكام شرطين أساسيين، هما:

١ ـ أهلية الاجتهاد.

٢ ـ الأمانة في ابتغاء الحق.

وهكذا يظهر لنا أنّ وحدة المنهاج الذي لا حرج فيه، والذي تكشفه بوجهٍ عام مصادر التشريع الإسلامية، نظامٌ متين ينتظم حركة حياة المسلمين النفسية والظاهرة، في سلك جماعيّ واحد.

ويلاحظ في هذا النظام أنّه يلتفّ دائراً على نظام الوحدة الفكرية الاعتقادية، فيتكوّن منهما حبل مُبْرَم متين.

بهذا البيان والشرح التحليلي ظهر لنا من روابط الأمة الإسلامية الربّانية الواحدة ما يلي:

١ ـ رابط الوحدة الفكرية الاعتقادية، الناظم لحبّات العقول والقلوب.

٢ ـ ثم رابط وحدة منهاج حركة حياة هذه الأمّة، الملتفّ المبرم على الرابط الأول.

فاجتمع الرابط الناظم لحركات النفوس والأجسام، مع الرابط الناظم للعقول والقلوب، ملتفين على بعضهما التفافاً دائريّاً متداخلاً، فكانا قوةً ترابطية عظيمة للأمة الرّبانية الواحدة.

ومن مظاهر وحدة منهاج هذه الأمّة الربّانية، وحدة قبلتهم التي يتوجهون لها في صلاتهم، ووحدة

محجّهم وشعائر الله فيه، وأنّ أركان الإسلام لديهم واحدة، وأنّ أسس المعاملات لديهم واحدة، وأنّ قواعد الأخلاق لديهم واحدة، وأن أسس عباداتهم واحدة، وأنّ جميع أحكام مناهج حياتهم تستقي من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

أمّا حينما تتعدّد مناهج الناس في حياتهم، وتتخالف اتجاهات هذه المناهج، فإنها لا بدّ أن تنتج تشقّق صفوفهم، وانقسام جماعتهم، وتجزئة وحدتهم، إذ تقوم فيما بينهم عوامل الفرقة والتمزّق، وتنمو شجرات شائكات خبيثات، من الأنانيات والعصبيّات والمصالح الخاصة، والأهواء والشهوات، حتى يصل الأمر بهم إلى التعادي، والخصام، والصراع، والتقاتل.

ثالثاً: ثمّ إنّ الذين تتحد مفهوماتهم الفكرية، وعقائدهم حول النشأة، والمصير، وواجب السلوك في الحياة، لا بدّ أن تكون لهم أهداف واحدة، ومصالح مشتركة غير متنافرة ولا متباينة.

والأمّة الربانية الواحدة تبرز أهدافها الكبرى فيما يلي:

١ ـ التحقق بالعبودية الصحيحة لله عزّ وجلّ،

للظفر بمرضاته، ونيل الخلود الأبديّ في النعيم المقيم يوم الجزاء.

مع أخذ النفس لحاجاتها وحظوظها من زينة الحياة الدنيا، ضمن منهاج الله لعباده.

٢ ـ ابتغاء الخير والنجاة والسعادة للنّاس أجمعين، عن طريق هدايتهم، وإصلاحهم، وتقويمهم.

والعمل على تكوين مجتمع إنساني متآخٍ متعاون متراحم سعيد يسير على منهاج الله لعباده.

وعلى حماية الشعوب المغلوبة على أمرها، والشعوب ذات النزعة الاتباعيّة، من الجبابرة المتسلِّطين، ومن القادة المضلِّين.

٣ ـ بناء الحضارة الإنسانية على أسس الحقّ والعدل والإحسان، والخير والفضيلة والجمال والكمال.

مع متابعة البحث العلميّ للتعرّف على حكمة الله وإتقان صنعه لكلّ شيء، ولاكتشاف كنوز الدنيا، واستخراج أثقالها، والتمكن من استخدام طاقاتها وقوانينها، وتسخيرها في خير الإنسان وسعادته، وقوّته، ورفاهيته.

ومن شأن الأهداف الواحدة، التي لا تتحكّم بها

الأنانيات الفردية والأهواء والشهوات، أن تجعل لأصحابها مصالح كثيرة مشتركة متشابكة، وأن تُوحِّد مسيرتهم، وتدفعهم إلى التعاون، والتعاضد، والتناصر، والموالاة، وأن تجعلهم يداً واحدة على من عاداهم أو وقف في طريقهم، أو عارض مسيرتهم، أو منعهم من تحقيق أهدافهم وغاياتهم.

وبذلك يتكوّن للجماعة وضع عامّ، يحرّك نفوس أفرادها إلى أن يطلق كلٌّ منهم من ذاته عدّة روابط تربطه بالجماعة، فمنها روابط كلّيّة عامّة تربطه بالجماعة دون تخصيص، ومنها روابط خاصة تربطه ببعض أُسرٍ أو أفراد منها، وهذه الروابط الخاصة تدعم الربط العام من جهة، وتعقد أواصر تعاون خاص ومصالح مشتركة خاصة مع عناصر الارتباط الخاص من جهة أخرى، ويتم ذلك انسجاماً مع طبيعة التعاون الأسري ضمن أعداد محدودة متفاهمة من أفراد الجماعة، وهنا تظهر قيمة التآخي في الله، والصداقات على طاعة الله، بين أفراد كلّ مجموعة منسجمة، تشكّل حلقة من حلقات الأمة الإسلامية، المتشابكة حلقاتها تَشَابُكَ حلقات الدرع الواحد.

وببيان رابط وحدة الأهداف والمصالح المشتركة

يظهر لنا رابط ثالث مضاف إلى الرابطين السابقين، وملتفٌّ عليهما التفافاً مُبرماً. وبهذا الرابط الثالث يعظم حبل الأمّة الإسلامية الربانية المتين، ويعظم عقدها المتشابك المتداخل المحكم الرصين.

وتقترن برابط وحدة الأهداف والمصالح المشتركة مع مشاعر الانتماء للأمّة الواحدة عواطف قوية فعّالة عالية الدرجة، وتتمثل بما يلي:

أ ـ المطامع والمخاوف الواحدة.

ب ـ الآمال والرغائب الواحدة.

ج ـ الآلام والمكاره الواحدة.

د ـ المسرّات والمباهج والأفراح الواحدة.

هـ ـ الذكريات التاريخية السارّة والمؤلمة.

و ـ مشاعر الاعتزاز والافتخار بالأمجاد الغابرة للأمة، والأمجاد التراثية ذات الآثار الباقية.

ولا تملك أمّة من أمم الأرض معشار ما تملكه الأمّة الربّانية الإسلامية، من وحدة الأهداف، والمصالح المشتركة، وما يقترن بها من عواطف واحدة.

رابعاً: ثمّ تأتي الحركة الدائبة داخل الأمّة الرّبانية

الواحدة، لإقامة النسيج المتشابك بين أفرادها، إضافة إلى الروابط الأساسية التي انتظمت العقول والقلوب والنفوس والأجسام في حركة حياتها.

وخيوط هذا النسيج العجيب يقدّمها التآخي في الله، والتوادّ والتناصح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والتآمر بالمعروف، والتناهي عن المنكر، والتآزر والتعاون على البرّ والتقوى، وسائر الصّلات الاجتماعية التي تعبّر عن الأخوة الإيمانية، وتزيدها قوةً وشائج الحبّ في الله، كالتهادي في الله، والتزاور في الله، والقرض الحسن ابتغاء مرضاة الله، وولائم المناسبات وغير المناسبات التي لا تقوم على التفاخر والمباهاة، وإنما تقوم على الأخوّة والمصافاة، وإكرام الضيف ابتغاء مرضاة الله. والاجتماعات المتكررة على حبّ الله وطاعته، وعلى فعل الخير، ومقاومة الشر، وصدّ أعداء الله وأعداء دينه، وأعداء هذه الأمة الرّبانية، ومجالس العلم والموعظة والإرشاد إلى الحق والخير والهدى، وإقامة المشروعات ذات النفع العام، لهذه الأمة الرّبانية، كالمشروعات الثقافية، والاقتصادية، والاجتماعية، والصحيّة، والصناعية، والعسكرية، وغير ذلك من دوائر حاجات المجتمع البشري.

وقد حمّل الله هذه الأمة الربّانية الواحدة، بوصفها أمّة لها وحدة متماسكة، مسؤولياتها الكبرى تجاه الناس أجمعين.

أ ـ فخاطبهم الله عز وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أوّل سورة مدنية بقوله:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (١٤٣).

أمّة وسطاً: أي أمّة عدولاً خياراً.

وعدالة هذه الأمّة إنّما تتحقق ببقاء طائفة منها على الحق، تستقيم على أمر الله، وتبلّغ الناس دين الله، وبذلك يحقّ لها أن تكون يوم الدين شهداء على الناس بأنّها بلّغت رسالة ربّها، كما تبلّغتْها عن رسول ربّها خاتم المرسلين.

فمن وظائف هذه الأمّة الرّبانية الواحدة تبليغ رسالة الإسلام للناس أجمعين، في مواكبها المتلاحقة. كما أنّ الرسول قد بلّغهم وحمّلهم مسؤولية التبليغ.

ويأتي الرسول ﷺ يوم القيامة فيشهد على من بلّغهم رسالة ربّه من أهل عصره. ويأتي كلُّ مبلّغ من أمّتِه لهذه الرسالة أو لبعضٍ منها شاهداً عدلاً يوم القيامة على من بلّغه من الناس.

أفيكون المسلمون شهداء على الناس أجمعين يوم الدين إذا لم يقوموا بواجب التبليغ؟! ، وكل ذي فكرٍ يدرك أنّه لا يتحقق لهم القيام بهذا الواجب على صورته الفضلىٰ ما لم يكونوا أمّة متماسكة ذات كيان واحد، وقيادة رشيدة.

ب ـ ثمّ خاطبهم الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) ثالث سورة مدنية بقوله:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾.

وبعد آيات قال لهم فيها:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ ...﴾ (١١٠).

فأمرهم الله عزّ وجلّ في هذه الآيات العظيمات:
بأن يتقوا الله حقّ تقاته، فلا يفرّطوا بواجب ولا يستهينوا بحرام، وبأن يحافظوا على إسلامهم وانقيادهم لأحكام هذا الدين حتى توافيهم آجالهم. وبأن يعتصموا بحبل الله جميعاً، أي: بأن يكونوا كتلة واحدة مجتمعة على الاستمساك بحبل الله، ولمّا كان حبْل الله واحداً فلا بدّ أن يكونوا إذن أمّة واحدة، وبهذا تكون عصمتهم، أي: حفظهم وحمايتهم من تسلّط أعدائهم عليهم مهما اجتمعوا ضدّهم، فالاعتصام هو اللّجوء إلى من يعصم، أي: يحمي ويحفظ.

ثم نهاهم الله عزّ وجلّ عن التفرّق، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ وهو تأكيد للأمر بالاعتصام بحبله، ولكن أخذ جانب النهي عن التفرّق، للإشارة إلى وجوب الابتعاد عن كلّ أسباب الفرقة والخلاف والشقاق. وذكّرهم بنعمته عليهم، إذ جمعهم بهذا الدين، فألّف بين قلوبهم، فأصبحوا بنعمته إخواناً، وقد كانوا أيام جاهليتهم أعداءً متفرّقين.

ثم أمرهم بأن تكون منهم أمّة الدعاة والمصلحين الناصحين المرشدين الذين يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وبهذا يحقّقون واجب

التبليغ للناس، وواجب صيانة المجتمع الإسلامي من الانحراف والتفرّق. وفي إعطاء الدعاة وحملة رسالة النصح والإرشاد لصيانة المجتمع الإسلامي عنوان (أمة) دلالة على وجوب كون الدعاة كتلة واحدة متعاونة غير متصارعة ولا متعادية ولا متباينة، ومهما تعدّدت وسائلها فينبغي أن تكون متكاملة، لا يحبط بعضها عمل بعض. ولذلك جاء عقب هذا الأمر بالاعتصام بِحَبْل الله النهي عن التفرّق والاختلاف، والظاهر أنّه توجيه خاصّ بأمّة الدعاة وحملة رسالة النُّصح والإرشاد، لذلك جاء فيه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ وهم علماء أهل الكتاب وأحبارهم ودعاتهم، إلاّ من استثناهم الله بعد آيات من السورة نفسها. انظر الآيتين (١١٣ ـ ١١٤).

وأخيراً خاطب الله هذه الأمّة الإسلامية بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ . . .﴾(١١٠).

فأبرز من أوصاف خيريّتها صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، النابعة من قاعدة الإيمان بالله، التي هي القاعدة الأولى في بناء الفرد المسلم والأمّة الإسلامية.

وفيه بشارة ضمنية بأنّ هذه الأمّة لا يزال فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المستندان إلى قاعدة الإيمان بالله.

وهذه البشارة قد جاء بيانها في حديث الرسول ﷺ.

روى مسلم وغيره عن ثوبان أن النبي ﷺ قال:

«لاَ تَزَال طائفةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَىٰ الْحَقّ، لاَ يَضُرّهُمْ من خَذَلَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ الله وهُمْ كذلك».

ج ـ ثم أنزل الله في أواسط المرحلة المدنية قوله تعالى في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ (٧٧) وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ (٧٨)﴾.

فأضاف هذا النص إلى واجبَي الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واجب الجهاد في الله حقّ جهاده.

وهكذا ارتقت حركيّة بناء الأمة الربّانية، فصارت بعد استكمال العناصر السابقة، أمّة صالحة لأن تجاهد في الله حقّ جهاده، وصالحة لأن يجتبيها الله، أي:

يصطفيها للقيام بهذا الواجب الجهاديّ العظيم ذي المسؤوليات الجسام، وإن كان لا يصل إلى مستوى الحرج والتكليف بما لا يطاق.

وأكّد أنّ الغرض من هذه الرسالة الجهادية إنّما هو تبليغ دين الله للناس أجمعين، ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

ونبّه على الواجب الأساسي لحمل الرسالة الجهادية، ألا وهو الاعتصام بالله، وهذا الاعتصام يستلزم وحدة الأمة لأن المعتصَم به واحد، والتقيد بأحكام دين الله، لأنه لا يكون الاعتصام بالله من دون طاعته، وعندئذ يتولاهم الله وينصرهم.

خامساً: ثم تأتي حماية هذه الأمّة من كلّ عوامل الفرقة والخلاف والشقاق، والتنازع والتخاصم، والتباعد والتدابر.

ولهذه الحماية وسائل كثيرة، منها إسراع وسطاء الخير لتقريب وجهات النظر بين المتخالفين. ومنها الإصلاح بالعدل، والإسراع إلى رأب الصدع.

وحين يقوم المجموع بالإصلاح بين الطوائف التي تنازعت، أو تخاصمت، أو تقاتلت. فإنّ عليهم أن

يصلحوا بالحق والعدل، ثم إنهم يملكون بحكم الله حقّ قتال الفئة الباغية المصرّة على بغيها، حتى تفيء إلى أمر الله، وترجع إلى سواء السبيل، وتنصاع إلى منهج الإصلاح وخطته.

وقد بيَّنت سورة (الحجرات/٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول) وهي من السور التي نزلت في أواسط أو بعد أواسط المرحلة المدنية كثيراً من المحرّمات التي من شأنها تمزيق وحدة الأمة، وتفريق جماعتها، كالسخرية، واللّمز، والتنابز بالألقاب، واتهام الناس بالظنون الوهمية، والتجسس، والغيبة، ونحو ذلك.

وحمَّلت جماعة المسلمين، مسؤولية الإصلاح بين الطوائف المختلفة المتصارعة، وقال تعالى فيها:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾.

وليس من شأن المؤمنين أن يولّد الخلاف الاجتهادي فيما بينهم ـ إذا كان مأذوناً به شرعاً ـ عقدة

التعصب للرأي أو المذهب، لأنّ الأصل فيهم أنهم ينشدون الحق، ويتحرّون الوصول إلى حكم الله، ليعملوا بما يرضيه، وليس من شأنهم أن يتّبعوا الهوى، أو تأخذهم العزّة بالإثم، والتعصب للرأي أو المذهب إنما هو انتصار للنفس أو للحزب أو للهوى، لا انتصار للحق. وذلك لأنّ القضايا الاجتهادية التي ليس فيها قواطع نصوص ولا إجماع عامٌ من قبل الأمّة، لا يقدّم الاجتهاد فيها أكثر من ترجيحٍ مستنِدٍ إلى غلبة الظّن. وليس من حق صاحب الاجتهاد أن يجزم ببطلان ما توصّل إليه غيره باجتهاده، ما دام هو لم يصل في حدود اجتاده إلى أكثر من ترجيح قائم على غلبة الظنّ، فقد يكون الحقّ الذي يرضي الله تعالى في غير جانبه.

فكلّ واحد من المجتهدين المأذونين شرعاً بالاجتهاد معذور بأن يحكم ويعمل بما وصل إليه اجتهاده، ما دام اليقين القطعي غير متيسّر.

وبهذه النظرة التسامحية، البعيدة عن الأنانية واتباع الهوى، تعامل فقهاء الأمّة ومجتهدوها، منذ عصر الصحابة رضوان الله عليهم، حتى أئمة الاجتهاد الكبار، إلى أن أصيب المذهبيون بداء التعصب المذهبي، الذي لا داعيَ له إلاّ الأنانية واتباع الهوى، ومثل التعصب

المذهبي تعصبٌ آخر مقابل له، يحمل شعار الاجتهاد وطرح المذهبية، فكثير من حملة هذه الفكرة مصابون بداء تعصب شنيع، يفسد وحدة الأمة، ويشق صفوفها مع أنّهم محرومون من أهليّة الاجتهاد.

سادساً: ولا بدّ للأمّة الربّانية الواحدة من القيام بما يلزم، حتى تستطيع شعوبها وقبائلها، مهما اختلفت ديارهم وألوانهم وألسنتهم، أن تتخاطب بلسان مشترك واحد، هو اللسان الذي خاطبهم الله به، فأنزل به كتابه للناس أجمعين.

ولا يشترط أن يكون هذا اللسان لسان النشأة والبيئة، بل يكفي أن تتعلّمه الشعوب الإسلامية، بوصفه اللسان الذي خاطبهم الله به، وبوصفه اللسان المشترك للأمة الرّبانية الواحدة التي ينتمون إليها.

إذن فعلىٰ المسلمين جميعاً أن يتعلّموا لغة القرآن كتاب الله، ليفهموا خطاب الله لهم، وليناجوه باللسان الذي اختاره لهذا الخطاب، فقد آمنوا به وبدينه وبرسوله وبكتابه، وانتموا إلى الأمة الواحدة التي جعلها الله خير أمة أُخرجت للناس.

ومن شأن وجود لسان مشترك واحد بين الشعوب الإسلامية أنه يضيف آصرة جديدة لها قوة عظيمة لا

تنكر، في تدعيم الوحدة الفكرية والعقديّة، والنفسية، ومنهج السلوك، لهذه الأمة الرّبانية. وفي تسهيل التعاون وتبادل المصالح فيما بينها. وفي نشر العلوم والمعارف وتبادل الخبرات بين شعوبها. وفي تهديم النُّعَرات القومية، واقتلاع جذور نزعات الفوارق العرقية التي قطع الإسلام شجراتها الشائكة بمفهوماته وتعاليمه. حتى تكون الشعوب ذات القوميات المختلفة، كأنها ذات قومية واحدة ضمن الأمّة الربّانية الواحدة.

سابعاً: ومن النتائج الطبيعيّة للأمّة الرّبانية الواحدة، التي لها وحدة فكرية اعتقادية، ولها منهاج سلوكيٌّ واحد لحركة حياتها النفسية والظاهرة، ولها أهداف واحدة، ومصالح مشتركة غير متنافرة ولا متباينة، ويترابط أفرادها بالإخاء والودّ والتعاون، أن تكون منطلقاتها الثقافية واحدة، وأن تتكامل فيما بينها علميّاً وثقافيّاً، وحضاريّاً. ومن شأن ذلك أن يهيّىء الشروط اللازمة لكي تكون لهذه الأمة الرّبانية وحدة ثقافية علمية، ومناهج تعليميّة موحّدة.

ثامناً: وتطبيقاً عمليّاً لوحدة هذه الأمة الرّبانية في هيكلها الاجتماعي والسياسي، نلاحظ أموراً مهمّة خمسة:

الأمر الأول: إعلان الأخوّة الإيمانية حتى مستوى الجسدية الواحدة في كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ:

فلقد عقد الله الأخوة الإيمانية بين المؤمنين بقوله عزّ وجلّ في سورة (الحجرات/ ٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول):

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

وأشار الله تعالى إلى أن نفوس المؤمنين بمثابة كتلة واحدة، فمن لمز نفس أخيه، فكأنما لمز نفسه، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الحجرات/ ٤٩ مصحف/ ١٠٦ نزول):

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ (١١).

وأشار الله تعالى إلى أنّ أموال أفراد المسلمين بمثابة مالٍ جماعي لهم جميعاً، فلا يجوز لهم أن يأكلوه بالباطل، فقال تعالى يخاطب الذين آمنوا في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

وقال الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا ﴿٥﴾﴾.

وبين الرسول ﷺ أن المسلم أخ للمسلم لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره.

روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا، ولا تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ الله إِخْواناً، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يَخْذُلُهُ، وَلاَ يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا (ويشير إلى صدره ثلاث مرّات) بِحَسْبِ امْرِىءٍ مِنَ الشَّرّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ».

ومثّل الرسول ﷺ المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم بالجسد الواحد، روى البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بالسَّهَرِ والْحُمَّى».

وينمو من عنصر الأخوّة الإيمانية عناصر الحبّ في الله، والاجتماع على الله، وابتغاء مرضاته داخل

الجماعة الإسلامية في كلّ عمل جماعي، وتكافل وتضامن وتعاون.

ولدى مقارنة الأخوة الإيمانية بالأخوة في مفهومات الناس، فإننا نجد فارقاً كبيراً بينهما.

إنّ الأخوة في مفهومات الناس، لا تعدو أنها لقاء في النسب على أبوين أو واحد منهما، فإذا ارتقينا عالياً فوق الأبوين القريبين، وتسلسنا مع الآباء والأمهات، وجدنا أنّ المجموعة البشرية كلها تلتقي على أصل واحد، وهذا ما أعلنه الإسلام في القرآن والسنة.

أمّا الأخوّة الإيمانية في مفهوم الإسلام فإنها لم تنبذ معنى الأخوة في مفهومات الناس، ولكنها أضافت إليها معنى الأخوة النسبية العامّة الموصولة بآدم أبي البشر، من الناحية الجسدية، ثم اعتبرت الأخوة على هذا المعنى الجسديّ أضعف العناصر التي تشتمل عليها الأخوة الكاملة الصحيحة.

فالعناصر التي تنعقد بها الأخوة الإيمانية المتينة الصادقة، عناصر أقوى وأعمق داخل الكيان الإنساني، من حدود بنائه الجسدي.

ولا بدّ أن نكون على بصيرة بأنّ الأخوة القائمة على الالتقاء الجسديّ البحت الخالي من عناصر الأخوة المعنوية، أخوة لا تصمد لعوامل التمزيق، وعوامل الشقاق والخلاف،

ولاسيما إذا كان بين أفرادها خلاف فكري أو خلاف اعتقادي، أو خلاف في المصالح والغايات والأهداف.

فمن المشاهد المتكرّرة أنّ إخوان النسب كثيراً ما يتقاتلون وتضيق حلقاتهم، متى اختلفت عقائدهم ومصالحهم وأهدافهم في الحياة، بخلاف إخوان الإيمان والحبّ في الله، فإن حلقاتهم تتوسّع باستمرار، ويتعاملون فيما بينهم بالأخوة، وإن اختلفت مصالحهم الفردية، وهم يسرعون بدافع إيماني إلى رأب الصدع إذا حدث، وتضميد الجراح ورعايتها حتى تلتئم.

إنّ الأخوة الإيمانية تستتبع تلقائيّاً عنصر الترابط الجماعي المادّي، القائم على المصالح المشتركة بين أفراد الجماعة، والتلاقي الجماعي المتكرر، والتكافل، والتضامن، والتعاون، والاعتصام بحبل الله جميعاً، وما إلى ذلك من أمور جماعية كثيرة.

ولا يخفى ما للترابط المادّي القائم على المصالح المشتركة بين أفراد الجماعة، والتلاقي الأخويّ المتكرر من آثار عظيمة في تدعيم العناصر الفكرية والقلبية والنفسية، وإبرازها في واقع عمليّ ملموس، وبذلك تكون الشخصية الإنسانية من جميع أطرافها المعنوية والمادّية، الداخلية والخارجية، متّحدة الاتجاه، مجموعة العواطف، ملمومة الأطراف، غير منفصمة ولا مقسّمة،

فلا تقول: سيفي هنا حيث مصالحي المادّية، وقلبي هناك حيث ضميري ووجداني، بل تقول: ظاهري وباطني جميعهما هنا.

وبذلك يبرز بنيان الأمّة الإسلامية الربّانية الواحدة بنياناً متماسكاً متراصّاً، يشدّ بعضه بعضاً، كما مثّله الرسول ﷺ.

روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري أنّ رسول الله ﷺ قال:

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضاً» وشبّك الرسول ﷺ بين أصابعه.

ومتى تشابك المؤمنون هذا التشابك المطلوب استطاعوا أن يقيموا بنيانهم الحضاري العظيم، الذي لا يطاوله ولا ينافسه بنيان آخر.

الأمر الثاني: إعلان الرسول ﷺ في إدارته السياسية، منذ بدء الدولة الإسلامية في المدينة، فقد جاء فيه:

«إنّ المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم، أمّة واحدة من دون الناس».

هذه هي المادّة الأولى، في الكتاب الدستوري الذي أملاه الرسول ﷺ، وأمر بكتابته، وأعلنه وثيقة دستورية لدولة الإسلام الناشئة في المدينة.

الأمر الثالث: إلزام الرسول ﷺ بأن يكون للمسلمين إمام واحد منهم، فمن نازعه إمامته، وخرج عليه، قُتل أيّاً كان.

ويظهر بهذا الإلزام عنصر وحدة القيادة العامّة للأمة الرّبّانية الواحدة، فربط هذه الأمّة بإمام يسوسهم، وينظم عقدهُم، الإداريَّ والسياسيّ، ويجمع شملهم، ويقيم دولتهم، من الأمور المهمة جدّاً للمحافظة على وحدتهم، والاستفادة من هذه الوحدة في أداء هذه الأمّة لرسالتها التبليغية والحضارية والقياديّة للناس أجمعين.

وهنا نجد في الإسلام اهتماماً بالغاً بربط جماعة المسلمين بإمام يتحمّل مسؤولية سياستهم وإدارتهم وإقامة دولتهم، حتى أمر الرسول ﷺ كلّ فرد مكلّف من المسلمين، بأن يكون في عنقه بيعة، فمن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية.

روى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ خَلَعَ يَداً مِنْ طَاعَةٍ لَقِيَ اللهَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ حُجّةَ لَهُ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيْسَ فِي عُنُقِهِ بَيْعَةٌ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً».

وَرَوىٰ الإمام مُسْلِم عن أبي هُرَيرة قَال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ خَرَجَ مِنَ الطَّاعَةِ وَفَارَقَ

الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً، وَمَنْ قَاتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عُمِّيَّةٍ (أي: بغير بصيرة ولاَ عِلْم بغاية القتال) يَغْضَبُ لِعَصَبِيَّة أَوْ يَدْعُو لِعَصَبِيَّةٍ، أَو يَنْصُرُ عَصَبِيَّةً، فَقُتِلَ فَقِتْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، وَمَنْ خَرَجَ عَلَىٰ أُمَّتِي بِسَيْفِهِ يَضْرِبَ بَرَّهَا وَفَاجِرَهَا، وَلاَ يَتَحَاشَىٰ مِنْ مُؤْمِنهَا، وَلاَ يفي لِذِي عَهْدٍ بِعَهْدِهِ، فَلَيْسَ مِنّي، وَلَسْتُ مِنْهُ».

وحرصاً على وحدة جماعة المسلمين الإدارية والسياسية، وخوفاً عليهم من التفرّق والخلاف، أمرهم الله ورسوله بطاعة أولي الأمر منهم، وبيّن الرسول ﷺ أنّ هذه الطاعة واجبة عليهم لأمرائهم مهما كان أصلهم وعرقهم ووضعهم الاجتماعي.

قال الله تعالى في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾.

وروى البخاري عن أنس، أنّ النبي ﷺ قال:

«اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَإِنْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ».

إلاّ أن لهذه الطاعة قيداً لازماً، وهو أن تكون القيادة في حدود ما أذن الله، وفيما لا مخالفة فيه لشريعة الله وأحكام دينه لعباده.

روى صاحب شرح السّنة، بإسناد صحيح عن النوّاس بن سمعان قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ».

وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «السَّمْعُ والطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَة».

وروى البخاريّ ومسلم عن علي بن أبي طالب قال: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «لاَ طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةٍ، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ».

وروى مسلم عن أمّ الحصين، أنّ النبي ﷺ قال: «إنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ مُجَدَّعٌ (أي: مقطّع الأطراف): يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ الله، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا».

وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر، أن النبي ﷺ قال:

«السَّمْعُ والطَّاعَةُ عَلَىٰ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرُ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ».

وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَىٰ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئاً يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُفَارِقُ الْجَمَاعَةَ شِبْراً فَيَمُوتُ إلاَّ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةٍ».

وظاهر أن الغاية من الإلزام بطاعة الأمراء فيما نحبّ وفيما نكره، هي المحافظة على وحدة الأمّة الإسلامية في هيكلها السياسي، والمحافظة على كتلتهم المنتظمة، وصيانتهم من أن يتسرّب إلى صفوفهم التنازع والخلاف، فالخطأ الجزئي الذي لا يمسّ أسس عقيدة المسلمين، ولا يفضي إلى هدم كيانهم وقوتهم الكبرى أهون بكثير من النتائج الوخيمة التي يفضي إليها شقّ العصا، وتقسيم وحدة الجماعة، وتسرّب التنازع والخلاف إلى الصفوف.

روى البخاريّ ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعْصِ الأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي، وَإِنَّما الإِمَامُ جُنَّة (أي: مثْلُ الترس الّذي يستتر وراءه المقاتل) يُقَاتَلُ مِنْ وَرَائِهِ، وَيُتَّقَىٰ بِهِ، فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَىٰ اللَّهِ وَعَدَلَ فَإِنَّ لَهُ بِذَلِكَ أَجْراً، وإِنْ قَالَ بغَيْرِهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ مِنْهُ» أي: فإنّ عليه من إثم وعقاب ما قاله بغير تقوى الله.

وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس، أنّ النبي ﷺ قال:

«مَنْ رَأَىٰ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئاً يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يُفَارِقُ الْجَمَاعَةَ شِبْراً فَيَمُوتُ إِلاَّ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً».

وبلغ من حرص الإسلام على وحدة القيادة، ومقاومته لكلّ من يحاول أن يشقّ العصا، ويفرّق الجماعة، أنه أمر بالقضاء الحاسم على كلّ دعوة مفرّقة لأمر الأمة الربّانية الإسلامية الواحدة، وذلك بقتل صاحب الدعوة المفرّقة:

روى مسلم عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ، فَاقْتُلُوا الآخَرَ مِنْهُمَا».

وروى مسلم عن عرفجة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّهُ سَيَكُونُ هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ أَمْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ وَهِيَ جَمِيعٌ، فَاضْرِبُوهُ بِالسَّيْفِ كَائِناً مَنْ كَانَ».

وروى مسلم عن عرفجة أيضاً، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ عَلَىٰ رَجُلٍ وَاحِدٍ، يُرِيدُ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ، أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ».

وروى مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ بَايَعَ إِمَاماً، فَأَعْطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ، وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ، فَلْيُطِعْهُ إِنِ اسْتَطَاعَ، فَإِنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ».

وفي رأيي أنّ وحدة الخليفة، قد لا توجب حتماً وحدة المسلمين جميعاً في دولة واحدة، بل قد تتقبّل وحدة الأمة الإسلامية وجود ولايات إقليمية، كلٌّ منها ذو حكم ذاتي يخضع مباشرة لسلطان الخليفة الواحد، الذي يرجع في أمرها إلى مستشارية من هذه الولاية نفسها المنتخبين من قبلها.

الأمر الرابع: تشديد الإسلام إلغاءه لكلّ مفهومات الجاهليّة الداعية إلى الفرقة العصبية، والاعتزاز بالآباء والأجداد، والافتخار بالقبليات والقوميات، والتمسك بالأنانيات المختلفة، ومقاومته لدعاة هذه المفهومات الجاهلية.

ومن هذه المفهومات الجاهلية جميع المفرقات الطبقية، والعرقية، واللونية.

لقد وضعها الرسول ﷺ جميعها تحت قدمه، تحقيراً ونبذاً وسحقاً واقتلاعاً لها من جذورها. وأعلن أنّ المسلمين في انتمائهم إلى الإسلام سواء، لا فرق بين عربي وعجمي، ولا بين أبيض وأسود وأحمر، وأنّ أكرمهم عند الله أتقاهم، وأنّ التفاضل إنما يقاس

بالصفات الحقيقة ذات القيم المتفاضلة، كالعلم والعقل الراجح، والعمل الصالح، ونحو ذلك.

وقد جاء في الصحيح من كلام الرسول ﷺ:

«أَنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ الجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلاَمِ مِنْ عُنُقِهِ إِلاَّ أَنْ يُراجِعَ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَةِ الْجَاهِلِيَّةِ فَهُوَ مِنْ جُثِيِ جَهَنَّمَ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّىٰ وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ».

الأمر الخامس: أوجد الإسلام داخل الأمة الرّبانية الواحدة أعمالاً جماعية كثيرة، من شأنها تقوية روح وحدتها الجماعيّة، وتعميق جذورها، وتمكين قواعدها، وإحكام التشابك والترابط بينهم، وبذلك تظهر أمامنا شبكة الجملة العصبية المدهشة التي تقوم عليها وحدة هذه الأمّة.

فهذه صلاة الجماعة اليومية، وصلاة الجمعة الأسبوعية، وصلاة عيد الفطر، وصلاة عيد الأضحى، والحجّ الذي هو موسم جامع كبير يفد إليه المسلمون من شتى بقاع الأرض، كلّ أولئك عبادات دورية تؤدّي وظائف مهمة من وظائف الروابط الاجتماعية. وليس الهدف منها مجرّد تحقيق عبادة الله تعالى، ولو كان الهدف منها ذلك لتيسر عن طريق العبادات الفردية القائمة على العزلة والانفراد.

ولتحقيق الهدف الجماعي كانت الحوافز على

صلاة الجماعة أعظم، فقد ثبت في صحيحي البخاري ومسلم، عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال:

«صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذّ بسبع وعشرين درجة».

ومن روائع حرص الإسلام على الجماعة في الصلاة أحكام صلاة الخوف، إذ نلاحظ أنّ الإسلام لم يفرّط بها حتى في أزمات الحرب وظروفه القاسيات ما لم يكن القتال ملتحماً. ولضمان مصلحة الأمن ومصلحة الجماعة في الصلاة ذات المضامين النظامية والقيادية والانضباطية، اتخذ الإسلام لصلاة الخوف ترتيباً آخر غير الترتيب المتبع في صلاة الجماعة عند الأمن. واهتماماً بالأمر نزل فيه تشريع قرآني، ولم يُكتف فيه بمجرّد البيان النبوي.

ومما يسترعي الانتباه في صلاة العيد أنها دعوة جامعة لعدد أوفر من جماعة المسلمين، ففيها يجتمع مسلمو البلد الواحد ويجتمع معهم وافدون إليها من القرى القريبة، ويحضر معهم النساء والصغار، حتّى اللّواتي لا يصلّين بسبب أعذارهن المشروعة، وظاهر أنّ الغَرَض من ذلك إبراز معنى الجماعة في تظاهرة إسلامية كبرى.

أمّا الحجّ فهو تظاهرة إسلامية اجتماعية سنوية أعظم وأكبر، إذ هو اجتماع على نطاق العالم الإسلامي كلّه.

وركن الزكاة في الإسلام ركن ذو معنى جماعي عظيم، قائم على مبدأ التعاون المالي، والمشاعر الوجدانيّة الجماعية، ويطول الكلام في تحليل المعاني الجماعية والوظائف الجماعية التي يؤدّيها هذا الركن العظيم، لو أردنا ذلك.

وسائر مبادىء التكافل الجماعي، كالنفقة الواجبة، والصدقة، والمنيحة، والعطية، والتهادي، والقرض الحسن، وقرى الضيف وإكرامه، والتيسير على المعسر، من الأمور الموثقة لوحدة هذه الأمة.

ولدى استعراض الأخلاق والآداب الإسلامية، تجتمع لدينا ثروة ثرّة من النصوص التي تحضّ المسلمين على أعمال جماعية إيجابية، والتي تحذّرهم مما يكسر وحدة هذه الجماعة، أو يخدشها، وقد جمعت كثيراً منها في كتاب «الأخلاق الإسلامية وأسسها».

* * *

الفصل الرابع

حركيّة بناء الأمة الربانية
في عصر الرسول ﷺ



حركية بناء الأمة الربانية في عصر الرسول ﷺ

كلّ عمل يتركب من عناصر متعددة، يحتاج عمليّة بناءٍ محكم، يبدأ من أساسه، ويرتقي إلى ذرواته، ثم إلى تحسينه وتزيينه.

هذه هي سنة الله في الخلق، ومخالفة سنّة الله ضرب من الرعونة والحماقة، إن لم تكن جنوناً.

ومع أنّ الله عزّ وجلّ قادر في خلق الإنسان على أن يقول له: كن فيكون مباشرة، من شيء موجود أو من غير شيء، إلاّ أنه تبارك وتعالى لم يفعل ذلك، وأبان لنا كيف خلق الإنسان على مراحل بنائية، ليعلّمنا سنة البناء في كلّ الأعمال، فقال عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً

﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

والدين الإسلامي قد أكمله الله وأتمّ به نعمته على المؤمنين وفق سنة البناء المتدرِّج، والقرآن أنزله الله على رسوله محمد ﷺ على وفق هذه السنة نجوماً متلاحقة، منذ بعثة الرسول حتى اقتراب أجل وفاته صلوات الله عليه.

والأمّة الربّانية الإسلامية الواحدة، قد تمّ تجديد بنائها في عصر الرسول ﷺ وفق سنة البناء المتدرج.

فمن أراد النجاح والفلاح وعدم الفشل في أعماله، فليلتزم بسنّة الله الثابتة، وليكن على يقين بأنّ سنن الله لا تعاند.

وقد سار تجديد بناء هذه الأمّة في عصر الرسول ﷺ وفق خطوات:

١ ـ **الخطوة الأولى**: كان لا بدّ فيها من بناء المفهومات الأساسية التي تقوم عليها هذه الأمة، بصورة متدرجة، وكان لا بدّ من الإقناع بها، حتى تتكوّن النواة الجماعية الأولى لهذه الأمة.

وهكذا كانت سنة الله وتطبيقات رسوله منذ مراحل الدعوة الإسلامية الأولى.

ففي هذه المراحل الأولى عمل الرسول ﷺ، ثم آزره الصفوة من الذين آمنوا معه، على تأسيس المفهومات الإسلامية، وبنائها بناءً تدريجيّاً، والإقناع بها شيئاً فشيئاً، حتى تكوّنت قاعدة بشريّة مؤمنة بهذه المفهومات إيماناً صادقاً مخلصاً، ومتبعة للرسول اتباعاً كاملاً لا حيدة فيه، ومطيعة طاعة تامة لا معصية فيها.

ومع خطوة بناء المفهومات تأتي التطبيقات التي تعقد الإخاء المتشابك بين أفراد الجماعة المؤمنة، وهذه التطبيقات تأتي متدرجة تدرجاً ارتقائيّاً بحسب مقتضيات الحكمة، وضمن سياسة اجتماعية دقيقة الملاحظة في عقد التشابك الأخوي، وتغذية المحبّة، وإبعاد أيّ عنصرٍ مفرّق، أو مورث للجفاء أو التدابر أو التحاسد أو العداوة والبغضاء، وتدريب الأفراد على الطاعة والانقياد للقائد، باتّباع أوامره واجتناب نواهيه، وتربيتهم على التضحية والفداء في سبيل المبادىء التي آمنوا بها، وابتغاء مرضاة الله.

وكانت المرحلة المكية في حياة الرسول ﷺ مرحلة تحقيق هذه الخطوة الأولى، من خطوات بناء الأمة الرّبّانية الإسلامية الواحدة.

٢ ـ **والخطوة الثانية:** تأتي حينما تتكوَّن لهذه

الأمّة قاعدة بشرية كافية في استعدادها الفكري والنفسي، وفي نسبتها العددية، لإقامة كيان مستقلّ ذي سيادة من دون الناس.

فتعمل حينئذٍ بكلّ حكمة للظفر بأرض متميّزة، يكون لهم ضمن حدودها سلطان حرٌّ مستقلّ، حتّىٰ يعتبر في عرف الناس من يعتدي عليهم فيها ظالماً، فإن صدّوه أو قاتلوه كان ذلك في عرف الناس عملاً مشروعاً لهم به حقّ.

وكذلك كانت حكمة الله في توجيه رسوله محمد ﷺ لعقد البيعة مع مؤمني يثرب، ثم حينما انتشر الإسلام فيها، وأثبتت تجربة المهاجرين إليها من مؤمني مكة نجاحها الباهر، وظهر أنّ البلد قد صار بلداً صالحاً لإقامة دولة هذه الأمّة الربانية ضمن حدوده، هاجر إليه الرسول ﷺ.

ومنذ وصوله أقام النواة أو القاعدة الأولى لدولة هذه الأمة الربانية الواحدة.

٣ ـ **وفي الخطوة الثالثة**: تأتي حركية استكمال بناء الإخاء المتشابك بين أفراد هذه الأمة.

ويلاحظ في هذه المرحلة توجيه العناية لعقد

التشابك الأخوي بين العناصر التي سبق لها أن تدرّبت على هذا الإخاء ومارسته عدة سنوات، والعناصر التي لم يسبق لها التّدرّب عليه ولا ممارسته. وهذا ما فعله الرسول ﷺ إذ آخى بين المهاجرين والأنصار.

وفي هذه الخطوة تأتي حركيّة التدريب لأفراد هذه الأمّة على إقامة مجتمع نظامي، يخضع لإدارة سياسية واحدة، وبناء قوة عسكرية تحمي كيان هذه الأمّة، وتعمل على تحقيق أهدافها في التبليغ وهداية الخلق إلى الحقّ، وإقامة العدل.

ويجري فيها اختبار القيادات، وانتقاء من يصلح منها للإمارة والإدارة، وتوجيه الأنظار نحوه، وإسناد بعض الأعمال إليه لتدريبه.

٤ ـ **وفي الخطوة الرابعة**: تأتي حركيّة استكمال أحكام الأنظمة المختلفة، الاجتماعيّة، والاقتصادية، والإدارية، والقضائية، والسياسية، وغير ذلك، ضمن سياسة تدرجيّة حكيمة، تستطيع الأمّة في هيكلها الاجتماعي العام احتمال تطبيقاتها، دون حدوث رجّة تُخَلْخِل تماسُك الجماعة، وبناءها المتراصّ.

ومع هذه الخطوة تستمرّ حركيّة تعميق مضامين

الخطوات السابقات، وتنطلق الحركيّة الواسعة الدائبة، لنشر دعوة هذه الأمّة، مع الصمود البطولي في مكافحة أعدائها وردّ مؤامراتهم، ومقاومة مناوشاتهم، مع البراعة والحكمة البالغة، في تجزئة عداوات الأعداء، وتفتيت تجمُّعات الخصوم، وعدم مواجهة كلّ المخالفين والمشاقِّين دفعة واحدة، ودراسة المواجهات مع الأعداء دراسة واعية، تلاحظ فيها القدرات والإمكانات وفق سنن الله الكونية الثابتة، وعدم التورّط فيما لا قِبَل لقوى هذه الأمة به.

ومع هذه الخطوة تسير عمليات إعداد القوى لاحتمالات المستقبل، فمن سنن الاجتماع البشري أنّ الأمم كلّما برزت دعوتها، وانتشرت أفكارها، وكثر أنصارها، كثر أعداؤها، وعظمت مكايد الناس ضدّها، خوفاً من امتداد نفوذها، وتأثير ذلك على مصالحهم، ومناطق نفوذهم.

٥ ـ **ثم تتلاحق الخطوات**: بقدر تكاثر هذه الأمّة، واتّساع رقعة الأرض التي تقوم عليها دولتها.

* * *

الفصل الخامس

فوائد وحدة الأمة الإسلامية وخطوات على طريق العودة





فوائد وحدة الأمة الإسلامية وخطوات على طريق العودة

(١)

فوائد الوحدة

لا تكاد تحصى الفوائد التي تجنيها الأمة من وحدة كيانها، فهي كثيرة جدّاً.

١ ـ إنّ الارتباط بالجماعة والتعاون معها يضاعف مقادير القوّة، لأنّ القوة المجتمعة تصمد أمام القوى الأخرى المعادية، بخلاف القوى الانفرادية المتناثرة، أو القوى المجزّأة، فإنّ أيّة قوّة معادية مجتمعة تستطيع الظفر بها، والتغلّب عليها، ثمّ التحكّم بمقاديرها، وإنْ كان قسم من القوى الانفرادية لو اجتمع لاستطاع صدّ القوة المعادية والتغلّب عليها.

ونستطيع بمعادلة يسيرة أن نثبت أنّ القوة الانفرادية زائد القوة الانفرادية، تساويان مجتمعتين أكثر منهما متفرّقتين، والسبب في ذلك: أنّ القوة الانفرادية

ما دامت وحدها، فإنها تتدخّل فيها عوامل الوهن والتخاذل، فتبدّد قسماً كبيراً منها، أو تحجبه عن الظهور والاستعمال، فتظهر قيمة القوّة ذات نسبة ضعيفة، بخلاف هذه القوة إذا كانت مجتمعة مع غيرها اجتماعاً يشعرها بالطمأنينة والأمل بالنجاح، فإنها تشحن عن آخرها، وتضاف إليها قوى احتياطيّة، لا تظهر إلاّ بتأثير عوامل قوية، وحينئذٍ تظهر قيمة القوة نفسها ذات نسبةٍ عالية جدّاً.

وبهذا نلاحظ أنّ قوة ذات قيمة عالية، مع قوة ذات قيمة عالية، تساويان مجتمعتين متماسكتين متحدتين، أضعاف نَظِيرتَيْهما المنفردتين المتفرقتين.

٢ ـ والوحدة الجماعية تدخل فيها عوامل الترابط، وبذلك تكون بمثابة شيء واحد عظيم القوة.

كلّ سالك في الطرق الصحراوية الرملية يلاحظ ظاهرة أكوام الرمل العظيمة، التي قد تبلغ أحياناً من الارتفاع والضخامة ما تعتبر معه جبالاً أو بمثابة الجبال. ويلاحظ أنّه قد تأتي رياح فتحمل على أكفّها هذه الرمال قسطاً قسطاً، وتنقلها من ذات اليمين إلى ذات الشمال، إذْ لا تجد بين ذرّاتها اتّحاداً ولا تماسكاً، وقد تسفيها إلى أرضٍ غير أرضها، وبلد غير بلدها، وتبدّها بدداً.

أمّا الصخور الصلبة، والجبال الراسيات، فإنّ الرياح مهما اشتدّت لا تؤثر على كيانها الصلب، لأنّ ذرّاتها متّحدَةٌ مترابطة، ومهما طال الزمن وتقلبت عليها الفصول، فقد لا تفعل فيها أكثر من حتٍّ وتعرية، وتكسير لبعض نتواءتها، وتبقى الجبال جبالاً قوية راسخة راسية.

فمثل الأمم التي ليس لها وحدة مترابطة متماسكة صلبة قوية، كمثل أكوام الرمل مهما عظمت.

ومثل الأمّة التي لها وحدة مترابطة متماسكة صلبة قوية، كمثل الطّود الراسخ.

والأمّة الربّانية الإسلامية الواحدة مرّت عليها أحقاب كانت فيما بمثابة سلاسل الجبال الممتدة في القارات، قوّةً وتماسكاً واتّحاداً.

٣ ـ ومن فوائد الاجتماع تهذيب الأخلاق، والتدرّب على كثير من الفضائل والآداب، واقتباس الثمرات المفيدة النافعة التي يتوصّل إليها الآخرون، سواء أكانت علمية أم عملية.

٤ ـ والاجتماع يدفع إلى الحركة والعمل، ويطلق كثيراً من الطاقات النفسية الكمينة، بخلاف الانعزال

والانفراد، فإنّه يميل بالإنسان المفرد، وبالمجموعات الانعزالية المنغلقة على نفسها، إلى التوحّش، والحذر من كلّ شيء، ويغذي الأنفس بكثير من رذائل الأخلاق.

٥ ـ ومن فوائد الاجتماع التعاون للقيام بجلائل الأعمال الإنسانية الكبرى، التي لا يستطيع الأفراد أو المجموعات الصغرى القيام بها، مهما بلغت قواهم ونشاطاتهم.

ولم يظهر في التاريخ الإنساني من الأعمال الجليلة الكبرى، إلاّ ما كان منها أعمالاً جماعية توافرت على القيام به مجموعات كبيرة من الناس.

أما الأعمال الفردية، أو شبه الفردية، فإنّها لا تثمر في الغالب إلاّ أعمالاً تتناسب مع مستوى الطاقات المبذولة، شدّة وضعفاً.

٦ ـ والنزعة الانفرادية تنمو معها الرغبة القبيحة بتهديم أعمال الآخرين، حرصاً على الانفراد بمجد التقدير بين الناس.

ومع هذه الرغبة القبيحة تتبدّد الأعمال الفردية نفسها، أو تضيع ثمراتها، فتحرم الإنسانية بالانفرادية ثمرات الأعمال الجماعية، وكثيراً من ثمرات الأعمال الفردية أيضاً.

٧ ـ ولدى التبصُّر في معظم الرذائل الخلقية التي نَهىٰ الإسلام عنها، وحذّر منها، نجدها تنْبَع من منابع الأنانيات المختلفة، الفرديّة، أو العائليّة، أو القبليّة، أو القومية، أو العنصرية.

ولدى التبصُّر في معظم الفضائل التي أمر بها الإسلام، وحثّ عليها، نَجِدُها على العكس من ذلك، فما من فضيلة خلقيّة يتعدّىٰ نفعها وخيرها إلى الآخرين، إلاّ وفيها عنصر التخلّي عن أنانيّة من الأنانيات المختلفات، والأساس الأخلاقي الذي عمل الإسلام على غرسه في جميع المسلمين أفراداً وجماعات، هو الدافع الجماعي، وهو شعور الفرد المسلم بأنّه جُزْءٌ من الأمة الإسلاميّة الرّبانيّة الكبرى، وشعورُ كلّ جماعة مسلمة بأنّها حلْقةٌ في الدرع الكبير الذي هو الأمة الإسلاميّة الرّبّانيّة الكبرى.

وقد غَذّىٰ الإسلام هذا الدافع الجماعيّ في كلّ إنسانٍ مُسْلمٍ يتّبع آيات اللّهِ في كتابه، ويتبع أقوال الرسول ﷺ وسيرته، وعمل على تنميته بين المسلمين بمختلف الأعمال الجماعيّة، مع الحث على لزوم الجماعة.

وبذل الإسلام جهداً عظيماً للتخفيف من أنانيّة الإنسان المسلم، ومن انعزاليته، وحذّر من الانفراديّة والفرقة، ما لم تفسد الجماعة فساداً عامّاً.

والسبب في كلّ هذا ما في الدافع الجماعي ولزوم جماعة الخير من فوائد عظيمة للفرد الإنساني والجماعة الإنسانيّة، ولما في الأنانيَّةِ والانْعِزالية والانفراديّة من مضارّ كثيرة، للفرد الإنساني، وللجماعة الإنسانيّة.

إنّ جلائل الأعمال الكبرى لا تتحقّق إلاّ عن طريق العمل الجماعي المنتظم المتعاون، بخلاف العمل الفرديّ فإنّه لا يُثْمِرُ في الغالب إلاًّ أعمالاً تتناسبُ مع مستوى طاقات الأفراد شدَّةً وضَعْفاً.

ومع النزعة الانفراديّة تنمو الرَّغبة القبيحة بتَهْدِيم أعمال الآخرين، حرصاً على الانفراد بمجد التقدير بين الناس، ومع هذه الرَّغبة القبيحة تتبدّد الأعمال الفرديّة نفسها، أو تضييع ثمراتها، بصراع الأنانيات، فتُحْرَمُ الإنسانيّة بالانفراديّةِ من ثمرات الأعمال الجماعية، ومن كثير من ثمرات الأعمال الفرديّة.

ومن الملاحظ أنّ المصابَ بالانفراديّة وبالانعزال النفسيّ، يكون في الغالب نفوراً، أذيّاً، غضوباً، لا

يَصْبر على أيّ عمل يؤذيه أو يخالف هواه، ولا يستطيعُ أن يتكيَّف مع أيّ مجموعة بشريّة يَلْتقِيها، ولا يستطيع أن يضغط على نفسه بشيءٍ يخالف هواه، ليكون حسَنَ المعاشرة لمن يلتقيهم من الناس.

كيف يستطيع ذلك وأنانيّته الانفرادية الانعزاليّة هي الحاكمة عليه.

٨ ـ لكن إذا كان المجتمع مجتمعاً فاسداً سيّئاً، ولا يستطيع الفرد مخالطته لإصلاحه، فإنّ جفوته والاعتزال عنه خيرٌ وأفضل.

وعلى المسلم العاقل حينئذٍ أن يتخذ لنفسه مجتمعاً محدوداً صالحاً يتعامل معه بمقتضى تعليمات الإسلام، ويعيشُ وسطه، ويجعل منه النواة الصالحة لبناء مجتمع إسلاميّ كبير صالح.

٩ ـ وفي الحث على الجماعة نجد نصوصاً إسلاميّة كثيرة، ومنها النصوص التالية:

أ ـ ما رواه الترمذي وابن ماجه بإسناد صحيح، أن النبي ﷺ قال:

«الْمُؤْمِنُ الّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ ويَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ

خَيْرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لاَ يَخُالِطُ النَّاسَ وَلاَ يَصْبِرُ عَلَىٰ أَذَاهُمْ».

ب ـ وروى الإمام أحمد بسنده عن النعمان بن بشير (من خطبة سمعها من النبي ﷺ وهو على المنبر) أنَّهُ قال:

«. . . وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ»[٣].

جـ ـ وروى الإمام أحمد والبيهقيُّ في شُعب الإيمان، عن أبي هريرة أنّ النبي ﷺ قال:

«الْمُؤْمِنَ مَأْلَفٌ، وَلاَ خَيْرَ فِيمَنْ لاَ يَأْلَفُ وَلاَ يُؤْلَفُ».

د ـ وأخرج النسائي وابن ماجه عن أبي الدرْداء أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«مَا مِنْ ثَلاَثَةٍ فِي قَرْيَةٍ وَلاَ بَدْوٍ لاَ تُقَامُ فِيهِمُ الصَّلاَةُ (أي: صلاة الجماعة) إلاَّ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ، فَعَلَيْكُمْ بالْجَمَاعَةِ، فَإِنَّما يَأْكُلُ الذِّئبُ مِنَ الْغَنَمِ الْقَاصِيَةَ».

---

(٣) المسند ج ٤ ص ٢٧٨.

(٢)
خطوات على طريق العودة

إنّ الشعوب الإسلامية على اختلاف قومياتها ولغاتها وألوانها، ما يزال وجدانها متمسكاً بمفهومات الوحدة ومشاعرها، والآمال بتحقيقها في واقع تطبيقي شامل، بعد عوامل التجزئة التي نكبت بها الأمة الإسلامية خلال قرون متعدّدة، وما تزال هذه الشعوب تطالب عن إيمان عميق بعودة وحدة الأمّة الإسلامية في واقع تطبيقي شامل. ولم تؤثّر عوامل التجزئة الكثيرة على عمق وجدانها وإيمانها، وذلك فضل من الله، سببه وحدة العقيدة، ووحدة منهاج السلوك الديني، ووحدة النكبات، ووحدة الآلام والآمال.

ولكنّ هذه العودة المأمولة لا تتحقق بمجرّد عواطف ونداءات، وببعض أعمال، وبضع مؤتمرات. إنّ أمامها مئات العقبات، منها ما هو خارجي ضاغط، ومنها متراكمات إقليمية، خلّفتها عوامل التجزئة التي كانت ضاغطة يوماً ما، نتيجة للضعف، والتفكّك الداخلي الذي كان ثمرة الابتعاد عن تطبيق الإسلام، وعن الاستمساك بنظمه وتعليماته.

والأسلوب الحكيم فيما أرى هو الأسلوب الارتقائي المتدرج، وهذا الأسلوب يتطلّب تحديد خطوات مبرمَجة، حتى يؤتي العمل بفضل الله ومعونته ثمراته اليانعات.

١ ـ وكانت دعوة المملكة العربية السعودية إلى التضامن الإسلامي دعوة موفقة جدّاً، وخطوة مهمة في طريق العودة إن شاء الله.

٢ ـ ثم كان تأسيس رابطة العالم الإسلامي عملاً إيجابيّاً طيباً، وخطوة مهمة أيضاً في طريق العودة، ودعمها وتوسيع نشاطاتها، وإمدادها بالعناصر المخلصة الفعّالة، من الأعمال المجيدة التي تخدم الغاية المنشودة إن شاء الله، ما لم يدبّ إليها الفساد الذي دبّ إلى مؤسسات إسلامية قبلها عن طريق المنافقين.

٣ ـ ثم كان قيام منظمة المؤتمر الإسلامي عملاً سياسيّاً بارعاً في فكرته، وخطوة إيجابية ومهمة في طريق الوحدة إن شاء الله.

٤ ـ ثم كان قيام البنك الإسلامي عملاً اقتصادياً مباركاً، يخدم فكرة الوحدة الإسلامية خدمة جليلة، وخطوة إيجابية ومهمّة في طريق العودة إلى الوحدة المنشودة.

وباستطاعتنا أن نقدّم عدّة مقترحات، نتابع فيها خطوات المسيرة إلى تحقيق الوحدة المنشودة، أو الاقتراب منها.

الاقتراح الأول

إعداد «نظام الأحكام الشرعية للعلاقات الاجتماعية المدنية» ليكون بديلاً جاهزاً للقوانين المدنية المستوردة، التي تعمل بها دول كثيرة من دول العالم الإسلامي.

ويتمّ هذا الإعداد عن طريق لجان متخصّصة منتقاة من العالم الإسلامي كلّه، تُفرَّغ للتوسع بدارساتها الفقهية والاجتهادية.

ويقوم مكتبها المشرف على أعمالها بعقد ندوات علمية، يناقش فيها ما توصلت إليه اللجان بعد البحوث المستفيضة في المسائل المشكلة التي قد تكون مثار خلاف بين علماء المسلمين.

وبعد استكمال إعداد موادّ هذا النظام يعقد مؤتمر موسّع للفقهاء والقانونيين الإسلاميين من العالم الإسلامي لاستعراض موادّ هذا النظام، والتصويت عليها فصلاً فصلاً، بعد أن تكون قد وزّعت عليهم لدراستها قبل سنة من عقد المؤتمر.

وبعد إقرار هذا النظام تصدر التوصية بوجوب التزام دول العالم الإسلامي به.

ويطبع هذا النظام، ويكلّف فقهاء متخصّصون ومعه قانونيون إسلاميون بشرحه شرحاً مستفيضاً، يتضمّن الأدلة الشرعية التي اعتمدت عليها اللّجان التي وضعت موادّه.

الاقتراح الثاني

قيام منظمة إسلامية للترجمة على مستوى العالم الإسلامي، مركزها الرئيسي في المملكة العربية السعودية.

وتقوم هذه المنظمة بترجمة معارف الشعوب الإسلامية إلى مختلف لغات هذه الشعوب. وبترجمة كتب العلوم وكلّ ما يجد من معارف أساسية لدى جميع شعوب الأرض، وطباعتها باللّسان العربي أوّلاً، ثم بألسنة الشعوب الإسلامية، حتى تكون هذه الكتب مراجع للباحثين من شعوب الأمة الإسلامية، وعلى صلة تامّة بكلّ ما يجد في ميادين المعرفة الإنسانية.

أمّا الآداب والفنون والفلسفة والعلوم الاجتماعية والإنسانية، فيمكن تأسيس إدارات محلية للقيام بمهمّات

ترجمة ما هو جيّد ونافع منها، ويمكن الاستغناء عنها مبدئيّاً.

الاقتراح الثالث

توحيد نظام التعليم العام ومناهجه وكتبه في العالم الإسلامي، حتى نهاية المرحلة الثانوية، والتقريب ما أمكن بين مناهج التعليم الجامعي.

الاقتراح الرابع

العمل على توحيد النظم الإدارية المختلفة، مستمدّة من الشريعة الإسلامية ومنسجمة معها.

الاقتراح الخامس

العمل على نشر اللّغة العربية في جميع بلدان العالم الإسلامي، وجعلها لغة الدين والعلوم الإسلامية، واللغة الثانية في التخاطب بعد لغة أيّ بلد إسلامي غير عربي.

وعلى البلدان العربية أن تساعد في ذلك بتأسيس مدارس تعليم اللّغة العربية، وتأليف الكتب الحديثة الفنّية لذلك.

الاقتراح السادس

تشجيع المصارف الإسلامية التي تتقيد بأحكام

الشريعة الإسلامية، وتعميمها على العالم الإسلامي كلّه.

الاقتراح السابع

استمرار اللقاءات وتبادل الخبرات بين الصفوة من رجال العالم الإسلامي على اختلاف تخصّصاتهم.

الاقتراح الثامن

التعاون بين دول العالم الإسلامي في جميع الشؤون التعليمية، والتوجيهية، والإعلامية، والاقتصادية، والدينية، والعسكرية، والصناعية، والزراعية، وغير ذلك من مختلف شؤون الحياة.



الفصل السادس

مكايد أعداء الإسلام
في تفتيت وحدة المسلمين



مكايد أعداء الإسلام في تفتيت وحدة المسلمين

(١)

يعاني أعداء الأمّة الإسلامية من وضع وتنفيذ مخططات كثيرات، ومكايد مختلفات، يظهر بعضها، ويخفى على جماهير الشعوب الإسلامية كثير منها، وغاية هذه المخططات والمكايد هدم كيان الأمّة الإسلامية الواحدة، وتجزئتها، وتفتيت كتلتها المتماسكة، وتدمير بنيانها المعقود بما عقد الله، وتفريق صفها المرصوص وتمزيقه.

فقد أخافهم قروناً عديدة مديدة ذلك التماسكُ الصلب، والترابط المتين ما بين المسلمين، على اختلاف أعراقهم، ولغاتهم، وبلدانهم، ورأوا أن أفضل سبيل للتغلّب على هذه الأمّة البدءُ بتجزئتها، وتفتيت وحدتها. ولكن ما السبيل إلى ذلك؟ ومن هنا بدأت معاناتهم.

ويرجع سبب هذه المعاناة التي عاناها أعداء هذه

الأمّة، إلى أسس الوحدة الإسلامية التي أقامها الإسلام بين المسلمين، والتي كان من نتائجها تشابك الأقوام والشعوب الإسلامية تشابكاً عجيباً، في نسيجٍ جماعي فريد من نوعه، لا يُمزَّقُ منه سطح إلاّ ظهر من ورائه سطحٌ آخر، ولا تقطّع منه آصرة إلا ظهرت من ورائها آصرة أخرى. وتتغلغل السطوح والأواصر في نفوس الأفراد المؤمنين، حتى نجد أصولها معقودة في جذور الإيمان المتمكن في قلوبهم.

ومن أجل ذلك يتعذّر على أعداء الأمّة الإسلامية أن يصلوا إلى اقتلاع فكرة الوحدة الإسلامية، ونسخ معانيها من قلوب المسلمين، حتى يصلوا إلى اقتلاع العقيدة الإيمانية من جذر قلوبهم.

لكنّهم قد يصلون إلى تجزئات مادّيّة مصطنعة، وقد يصلون إلى إقامة حواجز غير عميقة الجذور في نفوس المسلمين، بيد أنّ هذه الحواجز لا تمثّل إلاّ أجساماً غريبة دخيلة مهما طال عليها الأمد، لأنها لا تنسجم ولا تتلاءم مع المبادىء الإسلامية الثابتة، والعقيدة الإيمانية، الراسخة، والتطبيقات المتكررة لمعاني وحدة الأمة الإسلامية، داخل الشعوب الإسلامية المجزّأة، وداخل كل فرد مؤمن مسلم صادق.

والأمّة الإسلامية على اختلاف شعوبها تتربص بشوق رفع هذه الحواجز، والخلاص من هذه التجزئات، وتشعر بالفرحة والسرور العظيمين كلما وجدت فرصة أو مناسبة تستطيع فيها التعبير عن معاني وحدتها الإسلامية الكبرى. كما تجد نفوسها مندفعة اندفاعاً ذاتيّاً قويّاً وبدون رويّة، للاستجابة لأيّ نداءٍ مخلص يناديها إلى إقامة وحدتها الفكرية في واقع تطبيقي. أو يناديها إلى إقامة أيّ عنصر من عناصر وحدتها، كالتكاتف، والتضامن، والتعاون، والتناصر، ونحو ذلك.

وحينما قام أعداء الأمّة الإسلامية بمحاولات تجزئتها، وتفتيت وحدتها، فاجأتهم شبكة خطوط عجيبة التداخل والتشابك، ووجدوا أنفسهم أمام نسيج ليس له في مبتكرات الناس نظير. إنّ لهذا النسيج العجيب المتشابك المتداخل خيوطاً متشابكة متداخلة، مشدوداً بعضها إلى بعض، ومعقوداً بعضها ببعض، من كلّ جهة، ومن كلّ زاوية، وفي كلّ دائرة من دوائره الكثيرة، في سطوحه الظاهرة والباطنة، وهي جميعاً موصولة الجذور بجذور أسس العقيدة الإسلامية.

حتى إذا تمزّق جانب من هذا النسيج، أو فصم

منه جانب، بقيت سائر الجوانب على وضعها لم تتأثر، وبقيت موصولة بجذور العقيدة الإسلامية.

ومن خصائص هذا النسيج العجيب أنَّ له مثل صفات الكائنات الحية، القادرة على ترميم ما يصيبها من جراحات وكسور، عن طريق خلاياها الذاتية، وهو فوق ذلك يستطيع عن طريق خلاياه الذاتية التعويض عن عضوٍ كامل، إذا هو اعتلّ أو بُتر.

فنسيج الأمة الإسلامية الربّانية الواحدة، يفوق كل التكتّلات الجماعية التي ليس بين أفرادها تماسك، والتي لا يربطها إلاّ حزامٌ واحد، هو حزام الإدارة العامّة، أو عدد من الأحزمة الخارجية غير العميقة الجذور، كحزام اللّغة، أو العرق، أو اللّون، أو القومية، أو الحزبية. إنّ التكتّلات التي تكون من هذا القبيل تظلّ عرضة للتناثر والتفرّق السريع عند أوّل طارىء ينقطع به الحزام العامّ، أو الأحزمة الخارجية، وكذلك حينما يهترىء الحزام بطول الزمن، أو يأتي ما هو أقوى منه وأغلب وأكثر تغلغلاً في أعماق الكيان الإنساني.

لقد دلّت التجربات على أنّ التكتلات البشرية التي لا تؤلف بينها إلاّ أحزمة خارجية، وليس لها تغلغل في عمق النفوس والقلوب، لا تكون قادرة على الصمود ضدّ عقائد

ذات تأثير في القلوب، وتغلغل إلى مراكز الإيمان ومواقع اليقين، وهي بأنفسها لا ثبات لها ولا دوام، فاختلاف المصالح كفيل بتوهينها وتقطيع أحزمتها.

إنّ الأحزمة الظاهرية تهترىء وتبلىٰ بالاستعمال، مهما بدت قويّة في أوّل ظهورها على المجتمع، فكم من قوميات انقرضت. وكم من لغات بادت. وكم من مذاهبَ فكريّةٍ غير موصولة بحقيقة ثابتة تجعلها إيماناً، قد أصبحت نسياً منسيّاً، طواها الدهر فيما طوى من أعراض. وكم من شعوب تمزّقت وتفرّقت منذ فقدت قيادتها الإداريّة الحازمة الحكيمة، إذْ لم يكن لها روابط عميقة الجذور في قلوب أفرادها.

إنّ التكتلات البشرية التي ليس فيها من معاني الجماعة الحقيقية غير الصورة الظاهرة، مَثَلُها كمثل كوم من رمل محصور بين أربعة جدران، متى زالت هذه الجدران أو تهدّم بعضها، جاءتها الرياح فسفتها ونسفتها.

إنه لفرق كبير بين جماعة لا تربطها إلاّ أحزمة ظاهرية، وبين أمّة ذات أربطة متشابكة متعاقدة متداخلة عميقة الجذور، تتناول كلّ فرد من أفرادها.

إنّ في قصّة الشابّ الغرّ والعجوز العاقل المحنّك

لعبرة. أراد كلٌّ منهما أن يجمع حملاً من فسائل الشجر، ليزرعها في حقله.

أمّا الشاب الغرّ فاعتمد على جلادته وقوته، فجمع الحمل كلّه جمعاً واحداً، وشدّ عليه حبلاً طويلاً ورفعه على دابته.

وأمّا العجوز العاقل المحنّك، فأخذ يحزم كلّ خمس فسائل بحبل صغير، ويترك للحبل الصغير طرفاً يتداخل ضمن مجموعة أخرى، ثم أخذ يجمع كلّ خمس مجموعات بحزام أكبر، ويترك لهذا الحزام طرفاً للتشابك، ثم يجمع كلّ خمس من هذه المجموعات أيضاً بحزام أكبر، ويترك له طرفاً للتشابك، وهكذا بشكل متسلسل، حتى جمع حمله كلّه، فشدّ عليه حبلاً طويلاً، ورفعه على دابته.

وسار الشابّ والعجوز إلى حقليهما، وبينما هما في طريقهما، اعترضهما نهرٌ، فانطلق من جانب النهر ذئب جفلت منه دوابهما.

أمّا حمل الشابّ الجلد الغرّ، فما أسرع ما تناثر، وسقطت فسائله في النهر، وجرى بها الماء، وتعذّر عليه جمعها.

وأمّا حمل العجوز العاقل المحنّك، الذي أحكم حزمه حزماً متشابكاً، فلم يزد على أن سقط مجتمعاً من ظهر دابته، فأسرع إليه، وحمله مرّة أخرى، وسار إلى حقله لم يخسر منه شيئاً.

إنّ الروابط الاجتماعية الموصولة بالإيمان الراسخ، الذي يغذيها، ويمدُّها بالقوة، تظلّ في حالةِ نماءٍ مستمر، وتزايد في القوة والاشتداد كلّما مرّ الزمان.

أمّا الروابط الظاهرية المقطوعة الصلة بالإيمان الراسخ المتغلغل في القلوب، فإنها غير ذات قرار.

ولنا في المثل القرآني الذي في سورة (إبراهيم / ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) عظة وعبرة، إذ يقول الله عز وجل فيه:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾.

فالأمّة الإسلامية إذا حافظت على كلمتها الطيبة الجامعة، والمتغلغلة في عمق أفئدة أفرادها، كانت في الأرض كشجرة طيبة مباركة، ممتدة في القارات، أصلها ثابت وفروعها الكثيرة الممتدة في السماء، تُظِلّ القارات، وتؤتي أُكُلها النافع الشهيّ كلّ حين بإذن ربّها.

(٢)

وقام أعداء الإسلام والمسلمين بوحي من شياطين الإنس والجنّ فيهم، يضربون في طَود الأمة الإسلامية الواحدة أسافين الشقاق والخلاف، ويسقونها جرثومة الفساد والضغينة والعصبية والخلافات المتنوّعة، ويعطون للزمن فرصة تمكين الشقاق والخلاف وتعميقه، حتى يفعل تطاول العهد بهذه الأمّة من التمزيق والتشقيق والتفتيت، ما لم تفعله الحروب المسلّحة الكبرى.

وقامت لديهم نظرية الغزو الفكري لهذه الأمّة، بعد قيامهم بعمليات الغزو العسكري، فيما هو معروف بالحروب الصليبية، والحروب الأخرى التي جاءت من الشرق.

ثم قامت الحملات الاستعمارية الغازية، ودسائسها المجرمة الخادعة، ومن ورائها المخطّطات اليهودية الماكرة، بهدف تفتيت الأمة الإسلامية الواحدة، وتهديم

صرحها العظيم، وإلغاء الإسلام كلّه من الوجود، وإطفاء نوره.

كما قال الله عز وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف ١١٣ نزول):

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ الْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

ثمّ قامت حملات الغزو الفكري، وجعلت أهدافها تقطيع روابط الأمّة الإسلامية الواحدة، رابطاً فرابطاً، حتى عمق روابط الأخلاق، والعبادات، والعقيدة الواحدة.

فكانت حملات الغزو الفكري بالفسلفات المزخرفة الباطلة لتهديم العقيدة الإسلامية.

وكانت حملات الغزو الفكري بالمذاهب الفكرية الاجتماعية والنفسية والفلسفية وغيرها، لتهديم الدين من جذوره، ولتهديم الأخلاق، والنظم الإسلامية المختلفة، وإبعاد المسلمين عن كلّ أحكام الإسلام وشرائعه، بصورة كلية أو بصورة متدرجة.

وأصرّت الحملات على فصل الدين عن السياسة، وعلى إلغاء حكم الجهاد في سبيل الله، وعلى فرض

القوانين المدنية الوضعيّة، وعلى إقامة التجزئات المختلفة بين شعوب الأمّة الإسلامية، وعلى إلغاء الخلافة رمز الوحدة الإسلامية، وعلى فرض العلمانية وتشتيت المعرفة المختلفة الجذور، والتحويل عن المعرفة الشاملة المتكاملة ذات الجذور الربّانية الواحدة.

واستخدم أعداء الإسلام وسائل كثيرة لتجزئة الأمّة الإسلامية الواحدة، منها الوسائل التالية:

١ ـ عناصر الاختلاف السياسي، بتغذية الأنانيات المختلفة.

٢ ـ عناصر الاختلاف الطائفي، بإلقاء جرثومة الخلاف في العقائد.

٣ ـ عناصر الاختلاف المذهبي، بتشجيع التعصب المذهبي الذميم.

٤ ـ عناصر الاختلاف العرقي والقومي واللّغوي، بإحياء الجاهليات القديمة.

٥ ـ ثم بعناصر الاختلاف الإقليمي، بين أهل الأقاليم التي تجمعها قومية ولغة واحدة.

٦ ـ ثم بعناصر الاختلاف القطري، والاختلاف بين بلد وبلد داخل قطر واحد.

٧ ـ وهكذا تَتَسَلْسل هذه العناصر، حتى تصل إلى عناصر الاختلاف الأسري والاختلاف بين الأفراد.

٨ ـ عناصر الاختلاف الحزبي في المنظمات الموجهة للقيام بالصراعات الداخلية.

٩ ـ إلى غير ذلك من عناصر خبيثة توحي بها شياطين الإفساد والتمزيق، ومنها إلغاء النظام الأسري، وكلّ الروابط الاجتماعية.

وتفصيل أعمال الغزو الفكري يحتاج إلى كلام طويل، كتبت فيه سلسلة كتب تحت عنوان: «في سلسلة أعداء الإسلام»[٤]

وحسبي هنا الإشارة إلى أمّهات العناوين.

* * *

---

(٤) ظهر منها حتى الآن: «مكايد يهودية عبر التاريخ» و«صراع مع الملاحدة حتى العظم» و«أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها» و«الكيد الأحمر» و«غزو في الصميم» و«كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة» و«ظاهرة النفاق وخبائث المنافقين في التاريخ» و«أجوبة الأسئلة التشكيكية الموجهة من قبل إحدى المؤسسات التبشيرية».



الفصل السابع

أجوبة أسئلة
موجّهة من قبل بعض الصحف



وجهت لي بعض صحف المملكة العربية السعودية أسئلة تتعلّق بوحدة الأمّة الإسلامية، وكتبت لها الإجابة عليها بما هو مسطور في هذا الفصل:

السؤال الأوّل: ما تصوركم للمفهوم الإسلامي لوحدة الأمة الإسلامية؟

الجواب: تقضي المفاهيم الدينية التي دلت عليها النصوص الإسلامية بأن الأصل هو وحدة المجموعة البشرية بشرط التقائها على الإيمان بالله الخالق الواحد الأحد الذي خلقها، والإيمان بسائر أركان الإيمان التي أوضحها الإسلام. وبشرط التزامها بما ينزّل الله عليها من أحكام وتكاليف، مهما غيّر في ذلك وبدّل من حين لآخر، تبعاً للحكمة التي تقتضيها ظروف المجتمع البشريّ المتطوّر.

والله عزّ وجلّ قد عقد الأخوَّة بين المؤمنين، فليس باستطاعتنا أن نفصم هذه الأخوَّة إلاّ إذا نقضنا أركان الإيمان، أو عصينا الله فيما عقد بيننا من إخاء، ألم يقل الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ

أَخَوَيْكُمْۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ أي: ما المؤمنون في العلاقات الاجتماعية إلاّ إخوة.

فكل مؤمن مسلم فاهم لأصول إسْلامه يشعر من أعماقه بأنّه عضوٌ من أعضاء هذه الأمة الإسلامية الرّبّانيّة الواحدة، ويشعر بأنّه منها بمثابة عضو في جسد واحد، مهما عظم هذا الجسد، وامتدت أطرافه في قارّات الدنيا كما جاء في الصحيح من كلام الرسول ﷺ: «مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسَّهر».

فالوحدة الشعبية بين أفراد وشعوب وأقوام وجماعات الأمة الإسلامية قائمة مهما اختلفت قوميّاتهم، ولُغَاتُهم وألوانهم وبُلْدانُهم ودُوَلُهُم، باستثناء من سلخ نفسه من هذه الوحدة، أو فصمها عنها، بعامل من عوامل التمزيق المختلفة، التي ترجع إلى جذر الأنانية، أو التملّص من المفهومات الإسلامية، أو الغلوّ في احتكار الإسلام لجماعة معينة ونبذ المخالفين.

السؤال الثاني: يبدو أنكم تفصلون ما بين وحدة الأمة الإسلامية من خلال الأفراد والشعوب، وبين الوحدة السياسية والإدارية بين شعوب الأمة الإسلامية ودولها.

الجواب: نعم. ولا بدّ أن نفصل، ألسنا نشاهد شقيقين، أو أيّ قريبين، قد ينتميان إلى جنسيتين متباعدتين، فأحدهما ينتمي إلى دولة عربية، والآخر ذو جنسيّة أوروبيّة أو أمريكية أو غير ذلك؟. فهل اختلاف الجنسية السياسية الإدارية يقطع رباط القرابة النسبية بينهما؟!

السؤال الثالث: إذن فما هو رأيكم في الوحدة السياسية والإدارية بين شعوب الأمة الإسلامية؟

الجواب: لقد كانت الأمة الإسلامية منذ نشأتها واحدة، والأصل أن تبقى واحدة، وأن تسعى جاهدة بما تستطيع من وسائل لأن تحافظ على وحدتها. وإذا عَدَتْ عليها عَادِيَاتُ التَّمزُّق، فواجِبُها دواماً أن تسعىٰ لاستعادة وحدتها بعقل وحكمة وبصيرة وأناة على أسس فكرية وسياسية وإدارية واقتصادية سليمة، وأن تكون هي صانعة وحدتها.

أمّا الوحدات التي تُصْنَع لها، فإنَّما تُصنع بأشكال تؤدّي بها إلى الانفصال، إذ لا تُقام على أساس الروابط الإيمانية الإسلامية، والحقوق المتساوية التي تقضي بها شريعة الله.

السؤال الرابع: هل لكم أن تلقوا الضوء على عوامل التَّمزُّق؟

الجواب: ظاهرة التمزُّق القائمة سبقتها عوامل كثيرة يصعب استقصاؤها، ويمكن استعراض طائفة منها:

١ ـ مكايد الدول الاستعمارية التي جزّأت الأمة الإسلامية إلى دويلات وفتاتِ دُوَيْلات، وأقامت بينها الحواجز المصطنعة، بغية إضعاف هذه الأمة، حتى لا تجتمع كلمتها على أمر جامع يُعيدُ لها مجدها العظيم الذي كان لها، ويُعِيد لها موقفها القيادي في الأرض، لنشر دين الله، والدعوة إلى سبيل ربّها بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وابتغاء الحق والخير والفضيلة.

٢ ـ الأفكار والمذاهب الْمُقَطِّعَةُ لروابط الأخوة الإيمانية، كالعصبيات الجاهلية، والقوميّة، والإقليميّة، والقبليّة، واللّونية، واللّغوية.

وكالمذاهب الفكرية المعارضة مع المفهومات الإسلامية، كالشيوعية، والإلحاد، وأفكار التحرّر من قيود الدين وأحكام الشريعة الإسلامية.

٣ ـ المصالح الأنانية الفرديّة والحزبية والتكتليّة على أي مفهوم ذي تجزئة لجسم الأمة الإسلامية، ويدخل في هذا النَّزَعَات العرقية والإقليمية ونحوها.

٤ ـ الانغلاق المذهبي المتعصِّبُ لآراء اجتهاديّة، الأمر الذي يُفْضي إلى تمزيق وحدة الأمة الإسلامية، حين لا يتسامح المختلفون في الآراء الاجتهادية فيما بينهم، ولا يعذر بعضهم بعضاً، ولا سيما حينما يُكَفِّرُ بعضهم بعضاً بغلوّ مذهبيّ، مع أنّ أئمة المسلمين وصلحاء سلف هذه الأمّة لم يكفّر بعضهم بعضاً بمثله.

٥ ـ الأحزاب التي نشأت في شعوب الأمة الإسلامية وهي مرتبطة فكراً وسياسة بدولَةٍ أو أكثر من الدول المعادية للإسلام ولوحدة المسلمين، وكذلك الأجراء الذين يعملون لحساب أعداء وحدة الأمة الإسلامية من كلّ صنف من أصناف المجتمع، عسكريين وسياسيين واقتصاديين وغيرهم.

٦ ـ الأخطاء التي ارتكبها الأفراد الإداريون والسياسيون ومعهم أنصارهم من ذوي النزعات الأنانية القومية والعرقية، خلال الوحدة السياسية والإدارية التي كانت قائمة بين الأمة الإسلامية، أو عدد من شعوبها فكان من نتائجها ردود أفعال انفصالية، فردُّ الفعلِ

الأنانيّ أَنَانِيَّةٌ مماثلة أو أشدّ في الشعوب.

٧ ـ حركات الطوائف غير المسلمة داخل شعوب الأمة الإسلامية، ومكايدُها الانفصالية، المرتبطةُ بالدول الاستعمارية.

ونجم عن التجزئة متراكمات كانت عقباتٍ وحواجز مانعات من قيام الوحدة الاختيارية.

السؤال الخامس: هل من الممكن عودة الوحدة الإسلامية العامة الإدارية والسياسية؟

الجواب: الواجب دائماً أن نحيي مشاعر الوحدة الإسلامية، بتغذية المسلمين ـ أينما كانوا وحيثما حلّوا أو ارتحلوا ـ بمعاني الأخوة الإيمانية، ومفاهيم الجسدية الواحدة بين المسلمين، وضرورة اتّحادهم يوماً ما.

لكنّ هذه الأمة المنشودة المأمولة لا تتحقّق بمجرد عواطف ونداءات، وببعض أعمال، وبضع مؤتمرات، أو بانقلابات عسكرية.

إنّ أمامها مئات العقبات، منها ما هو خارجيّ ضاغط، ومنها ما هو متراكمات إقليمية، خلّفتها عوامل التجزئة التي ذكرتُ بعضها آنفاً.

والأسلوب الحكيم فيما أرى هو الأسلوب الارتقائي المتدرج.

وهذا الأسلوب يتطلّب تحديد خطوات مُبَرْمَجة، حتى يؤتي العمل بفضل الله ومعونته ثمراته اليانعات.

السؤال السادس: ما هي المقترحات العملية التي ينبغي التمهيد بها لقيام الوحدات السياسية والإدارية؟

الجواب: بودّي أن أطرح عدة مقترحات هي من الخطوات التمهيدية لهذه الوحدة:

الأول: توحيد نظام الأحكام الشرعية للعلاقات الاجتماعية المدنية.

الثاني: توحيد نظام التعليم العام ومناهجه وكتبه في العالم الإسلامي، حتى نهاية المرحلة الثانوية، والتقريب ما أمكن بين مناهج التعليم الجامعي.

الثالث: توحيد النظم الإدارية المختلفة مستمدّة من الشريعة الإسلامية ومنسجمة معها.

الرابع: العمل على نشر اللّغة العربية في جميع بلدان العالم الإسلامي، وجعلها لغة الدين والعلوم الإسلامية، واللّغة الثانية في التخاطب بعد لغة أيّ بلد إسلامي غير عربي.

الخامس: تشجيع المصارف الإسلامية التي تتقيد بأحكام الشريعة الإسلامية، وتعميمها على العالم الإسلامي كلّه.

السادس: التكامل الاقتصادي بين دول وشعوب العالم الإسلامي.

السابع: التعاون بين دول العالم الإسلامي في جميع الشؤون التعليمية، والتوجيهية، والإعلامية، والاقتصادية، والدينيّة، والعسكرية، والصناعية، والزراعية، وغير ذلك من مختلف شؤون الحياة.

الثامن: استمرار اللّقاءات وتبادل الخبرات بين الصفوة من رجال العالم الإسلامي على اختلاف تخصصاتهم.

التاسع: تدعيم منظمة المؤتمر الإسلامي، بمختلف العناصر المقرّبة من الوحدة الشاملة، والضابطة لمسيرتها على منهاج الإسلام.

العاشر: مدّ شبكات الاتصال التلائمي بين الجامعة العربية وبين منظمة المؤتمر الإسلامي.

أما الوحدات الانفعالية الفجّة فلا دوام لها.

* * *

خاتمة الكتاب

هذا ما فتح الله به علي في موضوع وحدة الأمّة الرّبانيّة، الّتي أقام اللَّهُ عزّ وجلّ أواصِرها وروابطها، وأرشد أتباع رُسُلِهِ المصطفين الأَخيار بالاستمساك بحبله المتين فيها، وحذَّرهم من التفرُّقِ والتمزُّقِ والشتات، بأيّ دَاعٍ من دواعي الأنانيات المختلفات.

وقد استخرجت أفكاره وعناصره من القرآن المجيد، والسُّنَّة المطهّرَةِ القَوْليَّةِ والفعليَّةِ، بصورة مُباشرة، مستعيناً باللَّهِ وفَتْحِه وتوفيقه.

ولم أجد من كتب في هذا الموضوع قبلي كتابة شاملة، وأرجو أن أكون قَدْ وُفِّقْتُ في تحديدِ أصوله وفروعه، وتفصيلِ كثير من عناصره.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

عبد الرحمن حسن حبنّكة الميداني
أستاذ الغزو الفكري والمذاهب الفكرية المعاصرة
بجامعة أمّ القرى

فهرس

سلسلة

رسائل تذكير وتبصير

صدر من هذه السلسلة

١ ـ الوجيزة في العقيدة الإسلامية.

٢ ـ الوسطية في الإسلام.

٣ ـ الأمة الربانية الواحدة.

٤ ـ لا يصح أن يقال الإنسان خليفة عن الله في أرضه فهي مقولة باطلة.